

روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
المصيدة
149

المصيدة

- ما سر تلك الزعيمة الغامضة ، التي أصبحت بالفعل على شفا السيطرة الكاملة على العالم ؟!
- كيف منح الأمريكيون (أدهم صبري) صلاحيات أمنية هائلة ، في أقوى أجهزتهم ؟!
- ترى من ينتصر في هذه الجولة العنيفة من الصراع ، وعلى من تنطبق (المصيدة) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل) .



العدد القادم (النهاية)



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

149



رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه، هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعددة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ ـ الأعماق..

خيّم ستار كثيف من الصمت المتوتر، على المقر السرى الخفى، لمنظمة (X) الرهيبة، للجاسوسية الخاصة، فى أعمق مكان مجهول من العالم، على الرغم من النشاط المكثّف الجم، الذى ملأ كل أرجائه، وبالذات قسم المتابعة الإليكترونية والاتصالات، الذى انشغل كل أفراده تقريباً، فى محاولة كشف عملية لاختراق قوية، لشبكة الاتصالات الخاصة المؤمّنة..

ومن حجرته الخاصة، التى لا يعلم مخلوق واحد موقعها بالضبط، راح مستر (X)، الزعيم السرى للمنظمة يراقب ويتابع ما يحدث، على مجموعة من شاشات البلازما الخاصة، التى تراصت على مساحة جدار كامل أمامه، وهو يجلس على مقعده الوثير، عاقداً كفيه أمامه، ومستنداً بذقنه إليهما، وذهنه يعيد دراسة الأمور، ويسترجع ذكريات ما حدث، خلال الأيام القليلة الماضية..

كان يدرك جيداً أنه يواجه أعتى وأخطر تحد، فى تاريخ منظمته القوية..

بل وفى تاريخ العالم كله..

وعندما راجع ذهنه تلك الأحداث الجسام، التي وقعت خلال ساعات معدودة، وأيام معدودة، أدهشه أن الأمور تجري بهذه السرعة الرهيبة..

والمتعددة..

وعلى الرغم من كل ما تذكره، كان في الواقع يجهل الكثير مما حدث..

والكثير جداً..

فالأمر قد بدأ مع ذلك المأزق، الذي وقع فيه الأمريكيون، عندما فوجئوا بأن زعيمة غامضة مجهولة، قد نجحت سراً، في السيطرة على أحد الأقمار الصناعية، الخاصة بمشروع حرب النجوم، الذي لم يتم استكماله لأسباب اقتصادية وسياسية، وأنها أصبحت تمتلك أول وأقوى مدفع ليزر فضائي، في العالم كله..

وكإثبات لقوتها، قامت بتدمير بعض الأهداف المهمة.. والخطيرة جداً..

ثم بدأت تملي شروطها..

وفي صفقة بلا نظير، طلبت مائة مليار دولار من الماس النقي، مع شرط مستفز للغاية..

أن يقوم بعملية التسليم رجل بعينه..

رجل المستحيل..

وبوسيلة فريدة، وعلى متن أحدث مقاتلة أمريكية، انطلق (أدهم) عبر المحيط الأطلنطي، في طريقه إلى (واشنطن)..

ولكن الزعيمة الغامضة لم تكن ترغب حقاً، في وصوله إلى هناك..

بأي ثمن..

لذا، فقد تم إسقاط مقاتلة (أدهم)، والاستيلاء عليها..

وعلى (أدهم) أيضاً..

وفي نفس الوقت، الذي بدأت فيه الزعيمة الغامضة تملي شروطها، وتحصل من الإدارة الأمريكية على كل ما تريد، كان (أدهم) يبحث عن وسيلة للفرار من الزنزانة الإلكترونية، التي سجنته فيها، داخل غواصتها الخفية الحديثة، في أعماق المحيط الأطلنطي.. وكوسيلة للتصدي للزعيمة، قرر مستر (X) التعاون مع الإدارة الأمريكية، وتبادل المعلومات معها، على الرغم مما في هذا من تناقض عجيب وغير منطقي..

ولأننا نتحدث عن تجاوزات غير منطقية للأمور، فقد وافقت الإدارة الأمريكية على هذا التبادل المعلوماتى ..

بل، وعلى توقيع عقد رسمى بهذا الاتفاق أيضًا، مع منظمة جاسوسية إجرامية ..

منظمة مستر (X) ..

ولكن الزعيمة الغامضة فاجأت الجميع بمطلب جديد، لا يقل خطورة، عن مطلبها السابق ..

مائة مليار دولار أخرى ..

من الذهب هذه المرة ..

ذهب (فورت نوكس) ..

وبينما راح قادة الإدارة الأمريكية يضربون أخماسًا فى أسداس، للبحث عن وسيلة لمقاومة هذه السيطرة القوية، كان (أدهم) يقاتل رجال الزعيمة فى شراسة عنيفة، للفرار من سيطرتها ..

*

وفى ممرات غواصتها الخفية، المجهزة بأقوى نظم السيطرة والتحكم الإلكترونية، دارت معركة رهيبة، بين رجال الزعيمة، والرجل ..

رجل المستحيل ..

وكوسيلة لمواجهة الموقف، وجد (أدهم) نفسه داخل حجرة خاصة للغاية، من حجرات غواصة الزعيمة ..

حجرة معادلة ضغط للغواصين ..

وفى نفس اللحظة، التى كشف فيها هذا، فتحت الزعيمة الأبواب الخارجية لحجرة الغوص ..

وراحت مياه المحيط تتدفق ..

بمنتهى القوة ..

وكان هذا يعنى أنه لن تمضى دقائق، حتى يغرق (أدهم) فى تلك المصيدة هناك ..

مصيدة الأعماق[*] ..

كل هذا لم يكن يعلمه مستر (X) بدقة، إلا أنه كان واثقًا من أن عدوته رهيبة بحق ..

فعلى الرغم من شبكة المعلومات الهائلة، التى تمتد إلى قارات العالم جميعها، والعدد الهائل من الرجال، الذين يعملون لحسابه، فى مختلف الدول، ومعظم مستويات القيادة، كان لأول مرة، يجهل تمامًا كل شىء، عن خصم يواجهه ..

(*) لمزيد من التفاصيل، راجع الأجزاء الثلاثة الأولى، (المأزق)، (الصفقة)، و (الضربة ب) .. المغامرات أرقام ١٤٦، ١٤٧، و ١٤٨

إنه لا يعرف بحق من خصمته الرهيبة ؟

من تلك ، التى نجحت فى تحديد مقره السرى الأول ، ومهاجمته ، وتدميره عن آخره ؟!

من تلك التى كانت تظفر به يوماً ، على الرغم من كل احتياطاته وقوته ؟!

من ؟!

من ؟!

لقد تصور فى البداية أنها خصمة قديمة ، عملت لحسابه يوماً ، أو حتى لحسابها الشخصى ..

أو أنها حتى قريبة لواحدة من الزعيمات القدامى ..

وعندما حاول مراجعة الأسماء فى ذهنه ، أدهشه كثيراً أن انتبه إلى أن العالم تحكمه النساء ، فى هذا الزمن ..

إمبراطورية الماس ، فى (إسبانيا) و(جنوب إفريقيا) و (بلجيكا) ، تحكمها دونا (ماريانا) ، ابنة جونا (ماريا) ، التى حطمها (أدهم) ، فى مواجهة سابقة شاملة(*) ..

(*) راجع قصة (حلفاء الشر) ، المغامرة رقم ٦٢

ومنظمة (المافيا) الرهيبة ، تحكمها دونا (كارولينا) آخر من تبقى من عائلة دون (كيرليونى) ، الأب الروحى الأسطورى للمنظمة ، والذى حطم (أدهم) أبناءه ، واحداً بعد الآخر أيضاً(*) ..

وحتى (أمريكا) ، تحكمها فعلياً مستشارة الأمن القومى السمراء ، التى تبغض الشرق الأوسط كله ، باستثناء (إسرائيل) ، بسبب فارس عربى ، نبذها يوماً فى احتقار ..

ومن حسن الحظ أن ذلك الفارس ليس (أدهم صبرى) أيضاً ، وإلا لانفجرت عروقه من شدة الغضب ..

ففى كل مرة ، لابد أن يجد أمامه ذلك المصرى ..

رجل المخابرات المصرى ، الذى ينفرد بلقب فريد ، وسط كل رجال المخابرات فى العالم ..

لقب (رجل المستحيل) ..

وفى هذه المرة أيضاً ، يصر (أدهم) على احتلال مساحة واسعة من الأحداث ، على الرغم من غيابه القطعى عن الساحة ، أو ...

(*) راجع قصة (الضربة القاضية) ، المغامرة رقم ٤٩

بتر حديثه مع نفسه بغتة، عندما وصل تفكيره إلى هذه النقطة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يراجع في ذهنه تاريخ (أدهم) ..

وعلاقاته ..

واتصالاته ..

و ...

وتوقف ذهنه مرة أخرى، وحاجباه يزدادان انعقادًا، واستدار بمقعده كله إلى جهاز كمبيوتر حديث، وراح يضرب أزراره في سرعة وحماس، مبحرًا في بحر من المعلومات والبيانات ..

وفي كل لحظة كان يدرك أنه يقترب بحق، مما يبحث عنه ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ثم تألقت عيناه بشدة ..

فالآن فقط، عرف السر ..

عرف من هي تلك الزعيمة ..

الغامضة ..

* * *

«سبع دقائق حتى الآن أيتها الزعيمة ..»

نقل جهاز الاتصال اللاسلكي عبارة الرجل، إلى الزعيمة الغامضة، التي نفثت دخان سيجارتها في قوة وتوتر، قبل أن تلتقط نفسًا عميقًا، في محاولة للسيطرة على أعصابها، واستعادة هدوئها، وتجيب بتلك اللهجة الصارمة الحازمة، التي اعتادها منها الجميع:

- إنها لا تكفي.

حمل صوت الرجل دهشته، وهو يقول:

- الحجرة امتلأت بمياه المحيط بالفعل أيتها الزعيمة، منذ ما يزيد قليلًا على الدقائق السبع، وما من مخلوق حي، بخلاف الكائنات البحرية، يمكنه احتمال كتم أنفاسه، كل هذه المدة، مهما بلغت قوته وكفاءته.

انعقد حاجباها، وهي تقول:

- هذا الرجل يختلف.

لم يبد قولها منطقيًا أو عقلانيًا، بالنسبة للرجل، أو حتى لباقي الرجال، الذين يستمعون إلى قناة الاتصال اللاسلكية المحدودة، إلا أن أحدًا لم يرغب في مناقشتها أو مجادلتها، ولكن الرجل سألها في توتر:

- كم سيمضى إذن ، قبل أن تطرد العملاء من الحجرة ، وتدخل لانتشال جثة ذلك المصرى .

شعرت بضيق شديد ، مع ذكره كلمة (جثة) هذه ، مما دفعها إلى أن تقول ، فى صرامة أكثر :

- لن نفعل هذا .

اتسعت عيون الرجال جميعهم ، فى دهشة مستنكرة ، إلا أنها استدركت فى سرعة وحزم :

- ليس بالأسلوب التقليدى .

سألها الرجل فى اهتمام :

- ماذا ستفعل إذن أيتها الزعيمة ؟!

قالت فى سرعة وصرامة :

- سندخل تلك الحجرة من الخارج ، وليس من الداخل .

فهم الرجل ما تعنيه على الفور ، فغمغم :

- كما تأمرين أيتها الزعيمة .

ثم استطرد فى اهتمام :

- كم من الرجال ؟!

أجابته بنفس السرعة والصرامة :

- خمسة .

قالتها ، وأنهت الاتصال معه ، فى محاولة لإلقاء الأمر كله خلف ظهرها ، وهى تقول فى مقت شديد :

- لقد أفسدت الأمور كعادتك يا (أدهم) .. أفسدتها فى الوقت غير المناسب .

وأشعلت واحدة من سجائرها الحمراء الطويلة ، فى عصبية واضحة ، قبل أن تضيف فى حدة :

- انظر ما الذى اضطررتنى لفعله ! لقد انتزعت منى لحظة ، حلمت بها طويلاً .

ضربت مسند مقعدها بقبضتها ، وخيّل إليها أن نيرانًا تستعر فى أعماقها ، وتلتهب فى عروقها ، وتملأ كيانها كله بغضب عنيف ..

غضب ربما لم تشعر بمثله قط ، فى حياتها كلها ..

غضب ثائر ..

هادر ..

رهيب ..

غضب يمتزج بالكثير من المرارة، والأسى، والغيظ..

بل والحزن أيضًا..

وربما يعجز الكثيرون عن تفسير تلك المشاعر المتناقضة المتشابكة، في لحظة كهذه، مع امرأة كهذه..

ولكنها كانت وحدها تفهم سر ما يعتمل في أعماقها...

تفهم سر التناقض..

والتعارض..

والالتهاب..

ولكنها، وبكل ما تملك من قوة، كانت تقاوم كل هذا..

وتقاوم..

وتقاوم..

وكمحاولة إضافية، للسيطرة على انفعالاتها، التقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها الخاصة، ثم ألقتها بكل قوتها عبر الحجرة، قبل أن تضغط زر جهاز الاتصال اللاسلكي المحدود مرة أخرى، قائلة في صرامة:

- متى ينتهي إصلاح شبكة الاتصالات الرئيسية.

أجابها مسئول الاتصالات في توتر، عبر جهاز الاتصال:

- إننا نعمل بأقصى سرعتنا، ونبذل قصارى جهدنا بحق أيتها الزعيمة.

زمجرت في شراسة، قائلة:

- ابذلوا المزيد من الجهد إذن.. أنتم تتلقون رواتب هائلة، لا يحلم بها أي متخصص في مجالاتكم.

قالتها، وأنهت الاتصال في حدة، والتقطت شهيقًا قويًا من هواء الحجرة، المعبأ برائحة سيجارها، قبل أن تفرد جسدها في مقعدها، محاولة الاسترخاء، وهي تغمغم:

- أظنني قد ظفرت بك هذه المرة يا (أدهم)، على الرغم من أنك قد أجبرتني على اختيار توقيت، يخالف ما عزمت عليه منذ البداية.

التقطت شهيقًا آخر، وذهنها يسترجع كل الأحداث منذ البداية، قبل أن تسبل جفنيها، متابعة:

- كنت أتصور أن السيطرة عليك ممكنة، لو اتخذت من الاحتياطات كل ما يمكن أن يخطر، أو حتى لا يخطر، على ذهن بشر، ولكن من الواضح أن جعبتك لا تنفد أبدًا، وأنك واسع الحيلة، على نحو لم يتمتع به خصم لي من قبل قط..

كان صدرها يعلو ويهبط ، فى تعاقب متصل ، يشف عن أن الانفعال الجارف فى أعماقها لم يخمد أو يهدأ بعد ، فانسبلت جفنيها ، متمتمة :

ـ كلا .. ليس الآن .. ليس بعد أن أشعلت النيران ، فى قبضتك الوسيلة الوحيدة لإخمادها .. ليس بعد أن بلغت هذا الحد من خطتك .. اقتلنى ، وأوثقنى ، وتملكنى ، فما هى إلا ساعات قليلة ، وتحكمين سيطرتك على العالم كله ، وبعدها لن تصبح لـ (أدهم) أو سواه قيمة تذكر .. هيا .. فلنلق كل هذا خلف الظهور ، و ...

« الرجال مستعدون أيتها الزعيمة .. »

قاطعها فجأة ذلك النداء ، الذى انبعث من جهاز اتصالها المحدود ، فاعتدلت بحركة حادة ، وضغطت زر الاتصال ، قائلة فى صرامة ، تبدو أقرب إلى الغضب :

ـ لم ينطلقوا بعد ؟!

أوجلت بصوت قائد قواتها يجيب فى عصبية ، عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ لابد أن يتلقوا الأمر بهذا أيتها الزعيمة .. هذا ما تربتهم عليه جيدًا .

أجابته فى غلظة ، وهى تشعل سيجارتها :

ـ آه .. لقد استعدت وعيك إذن ! كيف وجدت قبضة (أدهم صبرى) ؟! أهى أشبه بالمطرقة ، أم بالقنبلة ؟!

تجاهل عبارتها تمامًا ، وهو يسألها فى صرامة عصبية :

ـ هل ينطلق الرجال أيتها الزعيمة ؟!

نفثت دخان سيجارتها فى قوة ، قبل أن تسأله :

ـ أتوجد وسيلة للاتصال بهم فى الأعماق ، بعد مغادرتهم الغواصة أجابها فى سرعة :

ـ بالطبع أيتها الزعيمة .. الأجهزة اليدوية ، التى تستخدمها لها غلاف إضافى ، مقاوم للماء ، وهى مزودة بخاصية الرسائل ، ويمكننا بوساطتها متابعة حركتهم طوال الوقت ، دون الحاجة إلى شبكة الاتصالات الرئيسية .

قالت فى صرامة شرسة :

ـ عظيم .. أريد متابعة الموقف ، لحظة بلحظة .. هل تفهم ؟!

صمت لحظة ، بدا خلالها وكأنه يكظم غيظه ، من معاملتها السخيفة له ، عبر جهاز اتصال ، يمكن لكل من يحمل مثله من رجاله سماعها ، ثم لم يلبث أن قال فى الغضب :

ـ أفهم .

ثم أنهى الاتصال تمامًا، واستدار إلى رجال الضفادع البشرية، الذين يستعدون لمغادرة الغواصة؛ للتأكد من مصرع (أدهم)، وقال فى صرامة زائدة، وكأنما يخفى بها ضعفه أمامها:

- هيا .. انطلقوا.

أدى الرجال الخمسة التحية فى قوة، ثم حمل كل منهم بندقية أعماق، مزودة بسهم حاد طويل، ودلفوا إلى حجرة معادلة ضغط، مشابهة لتلك التى كان فيها (أدهم)، وانتظروا تدفق مياه المحيط، حتى غمرت الحجرة تمامًا، ثم انطلقوا بأسلحتهم إلى هناك ..

إلى الأعماق ..

كانت أزياء الغوص التى يرتدونها، من طراز حديث للغاية، معدًّا لمقاومة الضغط الشديد فى الأعماق، ساعدهم على السباحة بخفة، وهم يدورون حول الغواصة، متجهين نحو الجانب الآخر، حيث كان (أدهم) ..

ووفقًا لأوامر قائدهم، تحركوا جميعًا فى صف واحد، وأسلحتهم مشهورة أمامهم فى تحفز، وعيونهم ترصد كل ما حولهم بمنتهى الدقة والحرص ..

وعبر جهاز الاتصال الخاص به، قال قائد القوات فى صرامة:

- إنه لكم يا رجال .. ربما كان متميزًا ومتفوقًا على اليابسة، ولكنه لن يكون كذلك فى الأعماق، فحجرة معادلة الضغط، التى ستجدونه داخلها، لم يكن بها زى غوص واحد، يمكن أن يستخدمه للنجاة، ولن يمكنه احتمال الضغط الشديد، إلى هذا العمق، لو أنه فكر فى المجازفة بالخروج دون زى خاص؛ فسينفجر أثناء حتمًا، قبل أن يبلغ منتصف المسافة إلى السطح .. كلكم تعلمون هذا، كخبراء غوص، وعلى الرغم من معرفتكم هذه، سنتعامل مع الموقف، كما لو أنه قد نجا بوسيلة شيطانية، وما زال على قيد الحياة .. هل يمكنكم استيعاب هذا.

لم يكد ينهى حديثه، حتى وصلته من أحدهم رسالة قصيرة، تقول:

- بالتأكيد.

التقط نفسًا عميقًا، وقال:

- عظيم .. اظفروا به.

كان الموقف بالنسبة إليه، قد انتقل من حماية الزعيمة، وتنفيذ أوامرها، إلى نوع من الثأر الشخصى من (أدهم) الذى أفقده وعيه، وأذل ناصيته أمام الجميع ..

لذا فقد كان حازماً أكثر من المعتاد، وصارماً أكثر مما ينبغي، وهو يتابع حركة الرجال، الذين يوافونه برسائل قصيرة متعاقبة، تحدد مسارهم، حتى أدرك أنهم قد بلغوا حجرة معادلة الضغط، التي كان فيها (أدهم) بالفعل، فتوترت كل ذرة من كيانه، وقال في حزم صارم شديد:

- أريد جثته، أو أي دليل على مصرعه.. هل تفهمون؟

كان بإمكانهم سماعه في وضوح، إلا أن أجهزة الغوص كانت تمنعهم من التحدث إليه، لذا فقد وصلته من قائد المجموعة الخماسية رسالة قصيرة، تقول في اختصار:

- نفهم أيها القائد.

كان الرجال بالفعل قد بلغوا مدخل تلك الحجرة من الخارج، فاستخدموا مصابيحهم الضوئية، لإنارة المكان جيداً، وهم يتسللون إليه بأسلحتهم المشهورة في تحفز، و..

ولم تمض ثوانٍ على دخولهم، حتى التقط جهاز القائد، وجهاز الزعيمة أيضاً رسالة قصيرة واضحة، تقول:

- لقد عثرنا على جثته..

وفي وقت واحد تقريباً، خفق قلبا القائد والزعيمة معاً.. وبمنتهى العنف.

* * *

٢- جثة في البحر..

ازدرد وزير الدفاع الأمريكي لعابه في صعوبة شديدة، محاولاً السيطرة على انفعالاته الجارفة، وهو يقول للرئيس في توتر:

- الشحنة اكتملت، ومستعدة للتسليم.

غمغم الرئيس في مرارة:

- إنها لم ترسل تعليمات التسليم بعد.

ومطّت مستشارة الأمن القومي شفتيها في مقت، وهي تلوح بذراعها، دون معنى واضح، وتساءل وزير الدفاع في قلق شديد:

- ألن نحصل على موافقة الكونجرس؟! إنها مائة مليار دولار، من ذهب (فورت نوكس).

قالت مستشارة الأمن القومي في عصبية:

- لقد طلبنا عقد جلسة عاجلة، خلال ساعة واحدة.

تساءل الوزير:

- وهل يمكن أن يوافقوا؟!

أجابه الرئيس في حدة :

- وهل يملكون الرفض ؟!

أدار الوزير عينيه إليه ، وهو يجيب في سرعة وحزم :

- نعم .. يملكون .

بدا له وكأن الرئيس قد انكمش في مقعده ، وهو يقول في مرارة :

- لن يملكوا هذا ، عندما نشرح لهم الموقف كله .

زفرت مستشارة الأمن القومي في توتر عصبي ، وهي تقول :

- أخشى أن معظمهم لن يستوعب هذا .

قلب الرئيس كفيه في يأس ، وهو يقول :

- وماذا يمكننا أن نفعل ؟!

*

صمتت المستشارة بضع لحظات ، قبل أن تندفع قائلة في حدة :

- لدي خطة .

بدت الدهشة واضحة ، في ملامح وصوت الوزير ، وهو يقول مستنكراً :

- خطة ؟!

أجابته في صرامة :

- نعم .. خطة يا وزير الدفاع .. خطة لا تحتاج منك إلى تلك الدهشة المستنكرة ، لأنها لن تختلف كثيراً عن تلك الخطة ، التي وضعناها معاً ، لتبرير غزونا (العراق) !

قال الوزير في عصبية :

- إيهام العالم بوجود أسلحة دمار شامل في (العراق) ، يختلف تماماً عن إخفاء أمر مائة مليار دولار ، من ذهب (فورت نوكس) .

سألته في صرامة متحدية :

- فيم ؟!

أجابها بنفس العصبية :

- اختفاء الذهب من (فورت نوكس) أمر داخلي ، يمكن لعشرات الجهات أن تحاسبنا عليه ، أما غزو (العراق) ، فهو من الشئون الخارجية ، التي يمكن أن يعترض عليها

البعض ، ويثور من أجلها البعض الآخر ، وتخرج الدنيا فى مظاهرات لرفضها ، إلا أنه لا توجد قوة عظمى أخرى ، يمكن أن تمنعنا من تنفيذها ، ما دام هذا يحقق مصالحنا ، ومصالح أصدقائنا فى (تل أبيب) .

هزت رأسها فى قوة ، قائلة :

- خطأ .. الأمور الداخلية والخارجية واحدة ، ما دمت تستطيع إقناع العالم بهذا .

تراجع الرئيس فى مقعده ، فى توتر شديد ، وهو يتابع حديثهما ، ووزير دفاعه يصيح فى ثورة :

- وكيف يمكننى إقناع العالم ، باختفاء مائة مليار دولار من ذهب (فورت نوكس) ؟!

صاحت بدورها :

- بالإرهاب .

بدا وكأن قولها قد صدمه ، وهو يتراجع بحركة حادة ، هاتفًا :

- بماذا ؟!

أشارت بيدها فى حدة ، قائلة :

- بالإرهاب يا رجل .. الإرهاب الذى يبدو لى أشبه بالعصا السحرية ، التى تبيح لنا صنع كل شىء ، دون أن يجرؤ مخلوق واحد على اعتراضنا .. الإرهاب الذى ألصقناه بكل ما فعلناه ، خلال الأشهر الماضية ، على الرغم من أننا نخطط لكل هذا منذ سنوات ، ومنذ طلب منا الأصدقاء هناك التدخل مباشرة ، لتثبيت أقدامهم فى الأرض ، التى احتلوها منذ ما يزيد عن نصف القرن ، بعد أن بلغت المقاومة ضدهم حدًا ، أصبحوا يخشون منه على بقائهم واستمرارهم .. الإرهاب الذى ..

قاطعها بإشارة غاضبة من يده :

- أعلم ما هو الإرهاب ، ولكننى مازلت أجهل ، كيف يمكن أن يفيدنا ، فى موقف كهذا ؟!

انعقد حاجباها فى شدة ، وتطلعت لحظة إلى الرئيس ، قبل أن تعيد بصرها إلى وزير الدفاع ، مجيبة :

- قل لى أنت : ما أفضل صياغة يمكن أن تستخدمها ، فى بيان صحفى ، يعلن حدوث هجوم إرهابى غير متوقع ، على (فورت نوكس) ؟!

انتفض جسد الرئيس ، وهو يعتدل على مقعده بحركة

حادة ، فى حين بدا وزير الدفاع أشبه بالمصعوق ، وهو يهتف :

- على ماذا ؟! وهل تتوقعين أن يصدق مخلوق واحد مثل هذا البيان ، والكل يعلم مدى التحصينات القوية ، فى (فورت نوكس) ؟!

قالت فى صرامة :

- سيصدقونه ؛ لأن الهجوم سيحدث بالفعل .

صاح الرئيس هذه المرة :

- سيحدث ؟! ماذا تعنين ؟!

بدت شديدة التوتر ، على الرغم من صرامتها ، وهى تشير بيدها ، قائلة :

- أعنى أننى أريد إجراء اتصال عاجل ، مع مستر (X) .

اتسعت عينا الرئيس فى ارتياع ، فى حين ردد الوزير ذاهلاً :

- مستر (X) ؟!

أجابت بصرامة أكثر ، وقسوة بلا حدود :

- نعم .. مستر (X) .. ما دام يرغب فى التحالف معنا ، فعليه أن يقوم بدوره فى اللعبة .. وعلى أكمل وجه ..

وازداد اتساع عينى الرئيس ..

وتضاعف ارتياعه ..

أما وزير الدفاع ، فقد كادت عيناه تجحظان ، من فرط ذهوله ..

فما تقترحه مستشارة الأمن القومى ، كان يدفع الأمور خارج الحدود المعقولة ..

كل الحدود ..

على الإطلاق ..

* * *

« أريد جثته .. »

نطقت الزعيمة العبارة ، فى مزيج من الصرامة والتوتر ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود ، فانعقد حاجبا قائد قواتها ، فى توتر شديد ، وهو يتساءل :

- ولماذا أيتها الزعيمة ؟! الرجال أكدوا مصرعه بالفعل ، والفرقة هنا مازالت تحرى جثث رفاقهم ، الذين لقوا مصرعهم ، أثناء تبادل إطلاق النار معه ، ورؤيتهم جثته هنا قد ..

قاطعته في وحشية :

- أريد جثته .. مر الرجال بإحضارها فوراً .. هل تفهم ؟!

قال في غضب :

- أفهم ، ولكنني أعجز عن استيعاب الموقف ، و ...

صرخت في ثورة شرسة :

- نفذ الأمر .

صمت لحظة ، بذل خلالها جهداً خارقاً للسيطرة على غضبه وانفعاله ، قبل أن يجيب في اقتضاب :

- فليكن .

أنهت اتصالها به في سخط ، وهي تشعل سيجارة أخرى ، قائلة :

- ذلك الحقير يتصور نفسه عبقرياً ، ولكنه يجهل تماماً هوية خصمه وطبيعته .

ونفثت دخان السيجارة بكل قوتها ، قبل أن تضيف في عمق ، وهي تسيطر على انفعالاتها بإرادة فولاذية :

- فتى رجل مثل (أدهم صبري) ، لا يمكنك أن تجزم بمصرعه ، إلا بعد أن ترى جثته بنفسك .

وصمتت لحظة ، ثم استطردت في صرامة :

- بل وأن تتأكد من حمضه النووي وبصمته الجينية أيضاً .

أغلقت عينيها ، وهي تواصل تدخين سيجارتها في عمق ، وذهنها يستعيد ذكريات عديدة ..

ذكريات بعيدة ..

وقريبة ..

ذكريات أعادت إلى أعماقها عشرات المشاعر والانفعالات ..

والتناقضات أيضاً ..

ذكريات تسللت إلى كل خلية من خلاياها ، وكل ذرة في كيانها ، وكل نبضة في قلبها ، و ...

وفجأة ، انتفض جسدها ، وهي تعتدل في مجلسها بحركة حادة ..

لا ..

لا ينبغي لها أن تسمح لمشاعرها بالسيطرة على مواقفها ..

أبداً ..

مستحيل أن تفسد الأمور ، بعد أن بلغت هذا الحد !! ..

مستحيل !

مستحيل ، وألف مستحيل !

كانت انفعالاتها تعاودها ، على نحو جارف عنيف ، على الرغم من محاولاتها السيطرة عليها ، لولا أن تتلقى جهاز الاتصال الداخلى الخاص بها رسالة قصيرة ..

رسالة تقول : إن جثة (أدهم) عالقة فى حجرة معادلة الضغط ، وأن انتزاعها من مكانها يحتاج إلى جهد شديد ..

وبكل الغضب والانفعال ، هتفت عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ قلت : أريد جثته بأى ثمن .. هل تفهمون ؟؟ بأى ثمن .

تضاعف توتر قائد قواتها ، مع شراستها الشديدة هذه ، فغمغم فى سخط محنق :

ـ ماذا أصابها هذه المرة ؟؟

ثم ضغط زر الاتصال فى جهازه ، ونقل عبره ، فى صرامة حملت الكثير من الانفعال ، الذى ولدته شراستها فى أعماقه :

ـ انتشلوا الجثة بأى ثمن .. استخدموا مشاعلكم ، لو أنها عالقة فى ركن ما .. المهم أن تحضروها إلى الداخل .. هذا أمر لا يقبل المناقشة .

ولم تكد الزعيمة تسمع عبارته هذه ، عبر موجة الاتصالات المحدودة ، حتى ألقت سيجارتها بعيداً فى غضب ، صائحة :

ـ مشاعلهم ؟! هل جننت يا رجل ؟! أنسيت أن حجرة معادلة الضغط تحوى أسطوانات من الـ ..

قبل أن تتم عبارتها ، دوى الانفجار فجأة ..

انفجار مكتوم ، هزّ جسد الغوّاصة كله ، انطلاقاً من حجرة الغوص ، التى أغلق (أدهم) بابها خلفه فى إحكام ..

وبمنتهى العنف ، ارتج الباب المعدنى ، حتى كاد ينخلع من موضعه ، فى نفس اللحظة ، التى صرخت فيها الزعيمة ، بكل غضب وشراسة الدنيا :

ـ أرأيت أيها الغبى ؟!

ودون أن تضيع لحظة واحدة ، بدأت تتعامل مع الموقف ، فى سرعة ومهارة ، وهى تهتف عبر جهاز الاتصال المحدود ، وأصابعها تتحرك على لوحة التحكم الرئيسية :

ـ سيتم إغلاق الممر (م ــ ١٢) فوراً ، لتأمين الغوّاصة .. على الجميع إخلائه دون إضاعة ثانية واحدة .

قالتها ، وضغطت زر إغلاق وعزل الممر على الفور ، ثم

التقطت جهاز الاتصال الداخلى ، وهتفت فى غضب مخاطبة قائد قواتها :

- أرسل فريق غوص آخر فورًا ؛ لرصد ما حدث ، وتقدير الخسائر الناجمة عن خطئك .

هتف فى حدة :

- خطئى أنا .. ولكن يا سيدتى .

صرخت بكل غضب الدنيا :

- لا تناقشنى .. نفذ ما آمرك به فحسب .

وقبل أن تمنحه فرصة للمناقشة ، أدارت موجة جهاز الاتصال الداخلى ، لتقول لمسئولى قسم الاتصالات فى صرامة وحشية :

- أما زال أمامكم الكثير ، قبل إصلاح شبكة المراقبة ؟! إننا نخسر تفوقنا ، فى كل لحظة تمضى .

أجابها مسئول القسم مرتجفًا :

- إننا فى سبيلنا إلى إعادة تشغيل الشبكة بأكملها خلال دقائق قليلة أيتها الزعيمة ، ولكن لو أنك تريدين استخدام قسم بعينه منها ، فيمكننا أن ..

قاطعته صارخة :

- أريد الشبكة كلها .

ارتجف صوت الرجل فى شدة ، وهو يقول :

- بالتأكيد يا سيدتى .. بالتأكيد .

كانت تشتعل غضبًا وتوترًا وثورة ، إلا أنها صمتت بضع لحظات ، حتى تسيطر على كل هذا ، قبل أن تقول فى صرامة :

- أريد إجراء اتصال خاص مؤمّن ، عبر شبكة الأقمار الصناعية ، التى نسيطر عليها ، فى أسرع وقت ممكن .

أجابها الرجل ، وكل حرف يرتعد على شفتيه ارتعادًا :

- سنبذل قصارى جهدنا أيتها الزعيمة .. سنبذل كل جهد ممكن .

قالت بمنتهى الشراسة :

- هذا أفضل ... لكم .

وأنهت الاتصال فى حدة ، لتدير الموجة مرة أخرى ، صائحة فى قائد قواتها :

- هل بدأ الفريق الثانى مهمته ؟!

أجابها في اقتضاب :

ـ سيبدأ بعد دقيقة واحدة أيتها الزعيمة .

صاحت به :

ـ أريد تقريراً فورياً .

غمغم الرجل ، في حنق واضح :

ـ بالتأكيد .

أنهت الاتصالات في حدة ، وحاولت مرة أخرى أن تسترخي في مقعدها ، وأن تستعيد توازنها النفسي والعصبي ، وهي تقول :

ـ هيا .. مرة أخرى ينبغي أن تتماسكي .. وأن تهدئي ..

وبإرادة مذهلة ، راحت تسيطر على أعصابها رويداً رويداً ، إلا أن ذهنها لم يتوقف لحظة واحدة عن طرح السؤال ذاته ..

تُرى ماذا حدث لـ (أدهم صبري) هناك ..

في الأعماق ؟!

* * *

هزّ قبطان المدمرة الأمريكية (أيزنهاور)(*) رأسه في أسف وأسى ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، مراقباً رجاله ، الذين انهمكوا في انتشال جثث بحارة حاملة الطائرات والمدمرتين ، اللتين سحقتهما الزعيمة بمدفع الليزر الفضائي سحقاً ، وقال في مرارة :

ـ يدهشني كثيراً أن القيادة العليا ترفض الإفصاح عن حقيقة ما يحدث ، فمن الواضح أننا نواجه سلاحاً جديداً ، لا قبل لنا به .

غمغم مهندس المدمرة في توتر :

ـ كنت أتصوّر أننا نمتلك أقوى الأسلحة على هذا الكوكب يا سيّدي .

هزّ القبطان رأسه مرة أخرى ، وقال :

ـ إنه ليس سلاحنا بالتأكيد .

(*) (دوايت دافيد أيزنهاور) : (١٨٩٠ ـ ١٩٦٩ م) : الرئيس الرابع والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية (١٩٥٣ ـ ١٩٦٠ م) ، قاد قوات الحلفاء في (إفريقيا) في الحرب العالمية الثانية ، وعيّن قائداً لقوات الحلفاء المشتركة ، عام ١٩٤٣ م .

تردد المهندس بضع لحظات ، قبل أن يقول في حذر :

- ربما كان سلاحًا تجريبيًا ، أو ...

قاطعه القبطان بمنتهى الصرامة :

- إنه ليس سلاحنا .

أطبق المهندس شفتيه في توتر ، ولاذ القبطان بالصمت بضع لحظات ، وهو يواصل متابعة عملية انتشال الجثث ، ثم لم يلبث أن تابع ، وكأنما شعر بحتمية التفسير ، أو أنه كان يحتاج بالفعل إلى إفراغ ما بداخله :

- لا يوجد سبب واحد في الدنيا ، يدفع قيادة عليا إلى تجربة سلاح جديد ، على قطع جيشها نفسه .. لدينا هنا عشرات الوسائل الأخرى ، لتجربة أسلحتنا ، مثل صناعة النماذج المماثلة ، وإجراء عملية تطبيق على الكمبيوتر ، أو ...

قاطعه المهندس في خفوت :

- أو شن حروب لا مبرر لها ، على شعوب أخرى ، لا تملك الأسلحة الكافية لمواجهتها .

انعقد حاجبا القبطان في شدة ، وهو يقول :

- قول خطير يا هذا .

هزّ المهندس رأسه ، وقال :

- إنما أحدث نفسي بصوت مسموع .

قال القبطان في صرامة :

- ما زال قولاً بالغ الخطورة .

صمت المهندس لحظة ، ثم قال في شيء من العصبية :

- لو أن القول بالغ الخطورة ، فماذا عن الفعل ؟!

شعر القبطان بمرارة شديدة في حلقه ، وهو يزدرد لعابه في صعوبة ، قبل أن يقول في ضيق ، امتزج بما تبقى من صرامته المهنية .

- إنها أمور سياسية عليا ، لا شأن لنا بها .

قال المهندس ، في غضب مكتوم :

- ولكن الساسة يصدرون قرارات فحسب ، أما نحن فمن نقتل ونُقتل ، ونريق دماء آلاف الأبرياء ، دون أية مبررات ، سوى تجربة أسلحة فتك رهيبة .

ثم استدار إلى القبطان ، مستطردًا في شيء من الصرامة الغاضبة ، الذي لا يتناسب أبدًا مع فارق الرتب بينهما :

- هل تعتقد أن الرب سيغفر لنا هذا ؟!

بدا من الواضح أن العبارة قد أثارت توتر القبطان بشدة، وهو يعقد حاجبيه، قائلاً في عصبية:

- أنت رجل عسكري، ومن الخطأ أن تفكر بهذا الأسلوب.. العسكريون لا شأن لهم بالسياسة.. أو حتى بالدين.

هز المهندس رأسه، وهو يقول في حزم:

- عجبًا! لماذا إذن يسمحون لنا بالإدلاء بأصواتنا، في كل الانتخابات خاصة أو عامة؟! ولماذا نتعامل جميعًا بنفس الدولار؟!

التفت إليه القبطان في دهشة، متسائلاً:

- وما شأن الدولار بما نتحدث فيه؟!

أخرج المهندس من جيبه دولارًا واحدًا، لوّح به في وجه القبطان، وهو يقول، باذلاً قصارى جهده؛ للسيطرة على نبرة حادة في أعماق صوته:

- ألم تلق نظرة واحدة على أي دولار، في حياتك كلها يا سيدي؟! لو أنك لم تفعل، فدعني أخبرك أنه هناك عبارة أساسية، تعلو كل عملة أمريكية.. عبارة تقول (نحن نثق في الله(*)) ألا يعني هذا أن كل متداوليه شأن بالدين، شاء هذا أم أبى.

(*) حقيقة: (Ln Gop we trust)

وازداد انعقاد حاجبي القبطان، وهو يقول في عصبية:

- وما شأن ما نواجهه الآن بهذا؟!

قال المهندس في سرعة، توحي بأنه كان ينتظر السؤال:

- ذلك السلاح، الذي فتك بقطعنا البحرية، كما لو كانت مجرد دمى، في حوض استحمام طفل صغير، ليس أحد أسلحتنا، وهذا يعني أنه سلاح عدو.. سلاح جهة، لا يمكننا مقاومتها، أو التصدي لها.. ألا تدرك يا سيدي ما يعنيه هذا؟!

قال القبطان، في عصبية أكثر:

- إنها مسألة وقت فحسب.

كرر المهندس، وكأنما لم يسمع ما قاله القبطان:

- ألا تدرك ما يعنيه هذا؟!

سأله القبطان في حدة:

- وما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!

مال المهندس نحوه، قائلاً بلهجة عجيبة:

- يعني أنه عقاب.. القوة التي امتلكناها، وأسأنا استخدامها،

في قهر الآخرين ، واستعبادهم ، والسعي لفرض إرادتنا عليهم
وجدت أخيراً من يهزمها ، ويقهرها ، ويفرض عليه
إرادته .. صدقني يا سيدي .. إنه عقاب .

احتقن وجه القبطان ، وبدا عليه ما يشبه الارتياع
وتوترت كل عضلة في جسده ، و ..

« سيدي القبطان .. انظر .. »

انطلق الهتاف فجأة ، من أحد زوارق الإنقاذ المطاطية ذات المحرك ، التي تشترك في عملية انتشال الجثث ، فاستدار مع المهندس إلى مصدره ، في آن واحد ، وهتف الأخير :

- ترى ماذا حدث؟!

قال القبطان ، وجسده يرتجف انفعالاً :

- إنهم ينتشلون جثة جديدة .

قال المهندس في حيرة :

- وماذا في هذا ؟!

قال القبطان ، وهو يلتقط منظاره المقرّب ، ويضعه على عينيه :

- ربما بها إصابة خاصة ، أو ...

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يميل إلى الأمام ، محدقاً في تلك الجثة ، التي انتشلها طاقم الإنقاذ من المحيط ، والتي ترتدي ثياباً تخالف ثياب كل الجثث الأخرى ..

فوجه صاحب الجثة كان مألوفاً ..

بل ومعروفاً تماماً ..

بل وكانت صورته أمامه ، على شاشة الكمبيوتر ، منذ صدرت إليه الأوامر ، قبل عدة ساعات ، بالبحث عنه وانتشاله ..

كانت جثة (أدهم) .

(أدهم صبري) .

* * *

٢- الإرهاب..

احتقن وجه مدير المخابرات العامة المصرية في شدة، مع انعقاد حاجبيه الشديد، وهو يهب من مقعده الوثير، خلف مكتبه البسيط، هاتفًا:

- عثروا على جثته ؟! أي قول هذا يا رجل ؟!

أجابه مساعده في مرارة، وهو يضع أمامه البرقية العاجلة، الواردة منذ دقائق قليلة، من الولايات المتحدة الأمريكية:

- القول الذي أبلغنا به الأمريكيون رسميًا يا سيدي.. لقد عثر طاقم المدمرة (أيزنهاور)، على جثة سيادة العميد (أدهم)، في المحيط الأطلنطي، أثناء عملية انتشال جثث البحارة، الذين لقوا حتفهم، إثر ضربة الزعيمة للأسطول الأمريكي.

غمغم مدير المخابرات:

- مستحيل مستحيل.

نطقها، وهو يعاود الجلوس على مقعده في بطء، قبل أن يكمل في انفعال، بذل جهدًا مستميتًا لكتمانه في أعماق أعماقه:

- من كان يتصور أن هذا اليوم سيأتي.

هز المساعد رأسه، مقاومًا دموعه، وهو يغمغم في أسى:

- كل نفس ذائقة الموت يا سيدي.. الله (سبحانه وتعالى) وحده حي لا يموت.

غمغم المدير، في أسى مماثل:

- ونعم بالله.

ثم رفع عينيه إليه في حزم صارم، قائلاً:

- لابد أن نستعيد جثته بأي ثمن... (ن - ١) لن يدفن إلا في أرض (مصر).

قال المساعد في حزم مماثل:

- بالتأكيد يا سيدي.. بالتأكيد.

شعر المدير بغصة مؤلمة في حلقه، مع مرارة فقد أفضل رجل في الإدارة كلها، بل وربما في كل أجهزة المخابرات في العالم..

وعبر التاريخ..

وبكل مرارته وانفعاله، نهض من خلف مكتبه، واتجه إلى نافذته، التي تطل على ساحة المبنى، وظل يتطلع عبرها دقيقة كاملة، عقد خلالها كفيه خلف ظهره، ولاذ مساعده

بالصمت التام ، احترامًا لمشاعره ، قبل أن يسأله المدير دون أن يلتفت إليه ، وقد حمل صوته كل الانفعالات ، التي لم يحاول إخفاءها هذه المرة :

– أجر الاتصالات اللازمة مع الأمريكيين فورًا ، وأخبرهم أننا نطالب بجثة رجلنا سليمة ، دون إجراء أية فحوص عليها ، أو عمليات تشريح أو غيرها .

غمغم المساعد ، وهو يستعد لمغادرة الحجرة ، وتنفيذ الأمر :

– فورًا يا سيدى .

استوقفه المدير ، وهو يلتفت إليه ، قائلاً فى حزم :

– ولكن المهمة لن تتوقف بموته .

توقف المساعد ، والتفت إليه فى بطء ، فتابع بنفس الحزم :

– (ن – ١) نفسه لم يكن ليرضى بهذا فى حياته .. موت فرد ، مهما كانت أهميته ، لا يعنى التخلى عن أمن (مصر) المباشر .. أو حتى غير المباشر .

لم ينبس ببنت شفة ، وإنما تطلع إليه فى ترقب ، منتظرًا أوامره ، فواصل المدير بلهجة ، صارمة آمرة ، أخفت خلفها كل انفعالاته الأخرى جيدًا :

– أجر اتصالا سريًا مؤمنًا بالفريق الاحتياطى ، فى مقر البعثة الدبلوماسية ، وأبلغهم أن دورهم قد حان .

تردد المساعد لحظة ، قبل أن يتساءل :

– وهل أخبرهم بمصرع سيادة العميد (أدهم) ؟!

أجابه المدير فى سرعة وحزم :

– ليس بعد .

وصمت لحظة ، ثم أضاف بمنتهى الصرامة :

– ليس قبل أن نتأكد من الخبر .

ارتفع حاجبا المساعد فى دهشة ، وهو يقول :

– سيدى .. ولكن الأمريكيين أكدوا ..

قاطعه المدير بنفس الصرامة :

– مع رجل مثل (ن – ١) لا يمكنك أن تتأكد إلا بأمر واحد .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

– أن ترى جثته بنفسك .

وخفق قلب المساعد فى قوة ..

ولكنه لم ينطق حرفًا واحدًا ، للتعليق على عبارة المدير ..

ففى أعمق أعماقه ، كان يدرك أن المدير على حق فى قوله ..

على حق تمامًا ..

* * *

- « إرهاب ؟! »

اتسعت عينا مدير المخابرات الأمريكية ، في مزيج من الدهشة والارتياع ، وهو ينطق اللفظ ، محدقًا في وجوه الرئيس ، ووزير الدفاع ، ومستشارة الأمن القومي ، قبل أن يلوّح بيده في حدة ، صائحًا بكل الاستنكار :

- لا .. لا يمكنني أن أشارك في خدعة حقيرة كهذه .

احتقن وجه الرئيس الأمريكي في غضب ، وانعقد حاجبا وزير الدفاع في شدة ، في حين انتفضت مستشارة الأمن القومي ، تقول في صرامة عصبية :

- وما وجه الحقارة في هذا ؟! إننا لا نفعل ما نفعله ، إلا لتجاوز الأزمة ، ومنح المواطن الأمريكي أمنه وأمانه .

قال مدير المخابرات في حدة :

- أمنه وأمانه ؟! رويدك يا سيدتي .. لست أنا من تلعبين معه لعبة سخيفة كهذه .

احتقن وجهها بدورها ، وهي تصرخ مستنكرة :

- لعبة ماذا ؟!

أجابها في غضب صارم :

- لعبة تقليدية سخيفة .. دعيني أكرر العبارة ألف ألف مرة ، يا مستشارة الأمن القومي ، ولن أغيّر حرفًا واحدًا فيها ..

ثم أشار إلى صدره في صرامة ، مستطردًا :

- ألا تعلمين من أنا ؟! ألا تدركين كم سنة قضيتها في المخابرات الأمريكية ، مسئولاً عن النشاط السوفيتي ، وعن متابعة شئون العالم الثالث ؟! هل تعرفين سر انهيار الاتحاد السوفيتي ، وسر تراجع دول العالم الثالث ؟! إنها هذه العبارة بالتحديد .. منح المواطن أمنه وأمانه .

قالها ، وأطلق ضحكة عصبية قصيرة ، ثم تابع بنفس الصرامة :

- في الاتحاد السوفيتي القديم ، وفي معظم دول العالم الثالث ، يستخدم الحكام والمسئولون هذه العبارة ، كمبرر لاكتساب سلطات لا حدود لها ، وللاعتداء على حريات المواطنين ، وخصوصياتهم ، وتقييد حركاتهم ، وحتى سكناتهم ، فمن أجل الأمن ، تبيح الأجهزة الأمنية لنفسها مراقبة الهواتف ، واستيقاف المواطنين ، وتقييد الصحف ، أو أوامر ضبط قانونية .. وهكذا يفقد المواطنون حقوقهم ، وحريتهم ، ويفقدون بالتالي معها أمنهم وأمانهم ، الذي كان الحجة الأولى لكل ما حدث .

سأله الرئيس في توتر شديد :

- ما الذي تريد قوله بالضبط ، يا مدير المخابرات ؟!

التفت إليه مدير المخابرات ، قائلاً في نفس الصرامة ، دون مراعاة لأية قواعد أو أعراف :

ـ أريد أن أقول : إن (أمريكا) ، التي تدعون فعل كل هذا لحمايتها ، قد بدأت بالفعل رحلة الانهيار ، ومرحلة انحدار الحضارة ، التي بلغ الاتحاد السوفيتي نهايتها ، مع بداية تسعينات القرن العشرين ، وهذه الرحلة تبدأ بأن تتحول أجهزة الأمن ، من أجهزة حماية ، إلى أجهزة قمع ، وبأن يتحول الاهتمام الفعلي ، من تأمين المواطن البسيط ، ومنحه كل حقوقه وحرياته ، إلى السعي إلى تأمين الحكومة والإدارة ، وكبار المسئولين ، وضمان بقائهم واستمراريتهم .. وعندما تبدأ رحلة كهذه ، فالنهاية آتية لاريب ، مهما اتخذت أجهزة الأمن القوية من احتياطات ، ومهما مارست من تجاوزات .. هذا ما علمتني إياه سنوات الخبرة الطويلة ، في دراسة تطور وانهيار الحكومات ، والشعوب ، والحضارات .

ران الصمت تمامًا على مكتب الرئيس الأمريكي ، بعد أن انتهى مدير المخابرات من حديثه الغاضب ، ثم لم تلبث مستشارة الأمن القومي أن قطعت هذا الصمت بتصفيق بطيء ، وهي تقول في مقت :

ـ محاضرة رائعة يا مدير المخابرات .

ثم اتجهت نحو جهاز الاتصال الخاص ، المعد لإجراء الحوار المباشر مع مستر (X) ، وهي تضيف في صرامة قاسية :

ـ ولكن الوقت لا يكفي إلا لإلقائها خلف ظهورنا ، في الظروف الحالية .

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وقال في صرامة :

ـ لن أشارك في هذه العملية أبدًا .

تراجع الرئيس في مقعده بتوتر ، في حين قال وزير الدفاع في عصبية :

ـ فليكن يا مدير المخابرات .. لا تشاركنا في هذه العملية ، ولكن إياك وأن تتفوه بحرف واحد عنها ، سواء الآن أو فيما بعد .

قال مدير المخابرات في حدة :

ـ السكوت على أمر كهذا ، يتساوى مع المشاركة فيه .

قالت مستشارة الأمن القومي في صرامة :

ـ والحديث عنه يعني تدمير مستقبلك تمامًا ، بل ومحاكمتك بتهمة التآمر والخيانة أيضًا .

انعقد حاجبا مدير المخابرات فى شدة، وهو يرمقها بنظرة غاضبة، ولكنها ضغطت زر الاتصال، فى الجهاز الخاص، ثم اعتدلت، مضيفة بنفس الصرامة:

- نحن أيضاً لدينا معلومات وملفات خاصة .. جداً.

امتقع وجه مدير المخابرات، فى نفس اللحظة التى ظهر فيها، على شاشة جهاز الاتصال الخاص، وجه مستر (X) الغارق فى الظلمة كالمعتاد، وهو يقول:

- مرحباً أيها السادة.. من الجميل أن نلتقى مرة أخرى.

أجابه الرئيس الأمريكى، فى سرعة وتوتر:

- لقد وقعنا عقد الاتفاق المعلوماتى، وأرسلناه بالفعل إلى الجهة التى حددتها.

قال مستر (X) فى هدوء:

- أعلم هذا يا سيادة الرئيس، فلقد وصلنى بالفعل، بتوقيع النسختين، وأعدت إليكم نسختكم منذ لحظات.

هتف وزير الدفاع بمنتهى الدهشة:

- بهذه السرعة ؟!

وبدا مدير المخابرات شديد الاهتمام، وهو يشير بسبابته، قائلاً فى لهفة:

هذا يعنى أن مقرك السرى فى ...

قاطعه الرئيس بنظرة صارمة، فتراجع، واعتدل قائلاً فى توتر:

- هذا يعنى أنه يمكننا بدء تعاوننا فوراً.

صمت مستر (X) لحظة، ثم قال فى هدوء:

- بالتأكيد يا مدير المخابرات.. سأرسل إليكم على الفور، قائمة أسماء الجواسيس والعملاء، وسط قياداتكم العليا، ولكننى أريدكم أن تعلموا أن وسائلنا تختلف عن وسائلكم، وربما كانت أكثر تطوراً منكم أيضاً، فلاتحاولوا تعقبنا، أو التعامل معنا كأعداء.

مطّ مدير المخابرات شفتيه، وأشاح بوجهه بعيداً، فى حين قال الرئيس فى سرعة:

- لن نفعل هذا أبداً.

وتساءل وزير الدفاع فى لهفة:

- متى تصلنا تلك القائمة ؟!

- فوراً.

ولم يكد يتم كلمته، حتى بدأ جهاز الفاكس الخاص بالرئيس يعمل، وراح يطبع عدة أوراق متتالية، التقطتها مستشارة الأمن القومي في لهفة، والتهمت كلماتها في سرعة، قبل أن تهتف في ارتياع:

- يا إلهي! يا إلهي! مستحيل!

اختطف منها مدير المخابرات الأوراق، وطالعها بدوره، ثم انعقد حاجباه في شدة، وهو يسأل مستر (X)، عبر جهاز الاتصال الخاص.

- أنت واثق من الأسماء في هذه القائمة يا رجل ؟! إنها تضم عشرات، ممن كنا نتصور أنه لا يرقى إليهم الشك لحظة واحدة قط.

أومأ مستر (X) بوجهه الغارق في الظلمة، وقال في حزم:

- ستصلكم الملفات كاملة، خلال ساعة واحدة، مع كل التفاصيل، والوثائق، والصور، والأدلة.

تناول مدير المخابرات الأوراق للرئيس، فطالعها مع وزير الدفاع في سرعة، ثم قال الأخير، وقلبه يكاد يتوقف، من شدة الانفعال:

- رباه! الإدارة كلها تبدو لي، وكأنها تسبح على بحر من الجواسيس يا سيادة الرئيس.

غمغم الرئيس:

- من كان يتوقّع هذا ؟!

أما مستشارة الأمن القومي، فقد التقطت نفسًا عميقًا، للسيطرة على توترها وانفعالها، ثم سألت مستر (X) في حزم:

- تلك الحقيرة، هي التي حاولت تعقُّب اتصالك السابق بنا، أليس كذلك ؟!

أجابها مستر (X) على الفور:

- بلى.. وهي تستخدم أسلوبًا شديد التعقيد، وتكنولوجيا متطوّرة للغاية، توحي بأنها تستغل أقمار الاتصالات الخاصة بكم، على نحو أو آخر.

غمغم مدير المخابرات في عصبية:

- لقد توصلت إلى شفرة الاتصال بالأقمار الصناعية، بوسيلة ما، وأصبحت تسيطر على السماء كلها من الناحية العملية.

صمت مستر (X) لحظة ، ثم تمتم :

- لقد أجادت اللعبة بحق هذه المرة .

مطت مستشارة الأمن القومى شفتيها ، وقالت فى توتر :

- إنها تطلب مئة مليار دولار .. من ذهب (فورت نوكس) هذه المرة .

قال مستر (X) فى توتر ، لم يستطع كتمانه أو إخفاءه هذه المرة :

- رباه ! لو حصلت عليها ، ستصبح بالفعل أكبر قوة اقتصادية ، فى العالم أجمع .

قالت مستشارة الأمن القومى فى سرعة :

- وليس أمامنا ، فى هذه المرحلة ، سوى تنفيذ مطالبها .

صمت مستر (X) طويلا هذه المرة ، ثم قال فى ضيق واضح :

- هذا صحيح .. للأسف .

التقطت مستشارة الأمن القومى نفساً عميقاً آخر ، ثم قالت :

- ولهذا ينبغى أن يبدأ تعاوننا الشامل .. فوراً .

ولم ينبس أحد الحاضرين بحرف واحد ، وهى تناقش الخطة الجديدة مع مستر (X) ، زعيم أقوى منظمة جاسوسية خاصة فى العالم ..

فلقد بدا التعاون بينهما ، يتخذ مساراً جديداً ..

مساراً عملياً ..

وإرهابياً ..

للغاية ..

* * *

حمل صوت مسئول الاتصالات ، فى غواصة الزعيمة ، كل الارتياح والخضوع فى وقت واحد ، وهو يقول ، عبر جهاز الاتصالات المتكلم :

- تمت استعادة شبكة الاتصالات أيتها الزعيمة .

مع قوله ، أضيئت الشاشات كلها دفعة واحدة ، فى حجرة الزعيمة ، وبدا من الواضح أنها تعمل جميعها فى كفاءة ، تنقل إليها كل ما يدور فى المكان ، فغمغمت فى صرامة ، وهى تنفث دخان سيجارتها :

- عظيم .. لقد أنقذتم أعناقكم .

ثم اعتدلت على مقعدها ، وهى تستطرد فى شراسة عصبية :

ـ أريد الاتصال بكل رجالنا ، فى كل أنحاء العالم ؛ لمعرفة كل ما حدث فى العالم من تغيرات ، خلال الدقائق الأربعين ، التى انقطع خلالها اتصالاتنا .

أجابها الرجل ، وهو يرتجف بحق :

ـ كما تأمرين أيتها الزعيمة .. كما تأمرين .

أنهت الاتصال ، ثم التفتت إلى قائد قواتها ، الذى يقف مطرود القامة ، على قيد متر واحد منها ، ونفثت دخان سيجارتها نحوه فى بطء ، قبل أن تقول :

ـ والآن ، ماذا ينبغى أن أفعل بك .

قال الرجل ، فى توتر :

ـ لقد أنبت ولبى أيتها الزعيمة .

هتفت فى غضب مستنكر :

ـ ولبيك ؟!

*

سرت فى جسده ارتعادة مع هتافها ، وأمسكت يده مقبض المسدس ، المعلق فى حزامه ، بحركة غريزية ، انتبهت هى إليها جيدًا ، فمالت تتراجع فى مقعدها ، وتستعيد هدوءها وتماسكها ، وهى تقول :

ـ ما تسميه ولبيك ، كلفنا الكثير للغاية يا رجل .. لقد فقدنا سيطرتنا المصرى ، مع كل خطورته وأهميته ومعه عدد ضخم من رجالنا ، وأربعين دقيقة ثمينة ، يمكن أن يتغير خلالها وجه العالم كله .. كل هذا ولم نتأكد حتى من مصرعه .

انعقد حاجبا الرجل فى شدة ، وهو يعيد يده إلى جواره ، كلاً فى عصبية زائدة :

ـ أى قول هذا أيتها الزعيمة ؟! لقد قرأت تقرير فريق القوص الاحتياطى بنفسك ، واستجوبت رجاله بمنتهى الدقة ، وكلهم يؤكدون أن الانفجار قد نسف الحجرة تمامًا ، بكل ما فيها ، ومن فيها ، وتناثرت الأشلاء داخلها على نحو بشع ، ومن المستحيل أن ينجو مخلوق واحد من انفجار كهذا ..

ثم مال نحوها ، وامتزج غضبه بعصبية ، وهو يضيف :

ـ أى مخلوق بشرى .. طبيعى .

رمقته بنظرة صارمة ، وهى تلقى سيجارتها الطويلة بعيدًا ، ثم ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها ، وهى تقول :

ـ لقد قلتها .. أى مخلوق طبيعى .

قال فى حدة :

- ولكن المصرى لم يكن رجلاً خارقاً ، فى من كوكب آخر أيتها الزعيمة .. لقد كان بشرياً مثلى ومثلك ، وبحكم خبراتى القتالية المتعددة ، يمكننى أن أجزم باستحالة بقاء أى بشرى على قيد الحياة ، داخل حجرة أصابها هذا .

غمغمت ، وهى تشعل سيجارة حمراء طويلة أخرى :

- بحكم خبراتك ؟!

شد قامته مرة أخرى ، وهو يقول فى صرامة :

- نعم أيتها الزعيمة .. بحكم خبراتى العسكرية الطويلة ، التى تعرفينها جيداً .. الخبرات التى اكتسبتها من القتال فى (البوسنة) ، وفى (العراق) ، و ...

قاطعته ، فى شىء من السخرية ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى بطء :

- قل لى أيها الـ .. البطل :

هل سبق لك أن قاتلت خصماً ما ، وجهاً لوجه ، وهو يحمل أسلحة تعادل أسلحتك ؟!

انعقد حاجبا الرجل فى توتر ، وهو يقول :

- ما الذى يعنيه هذا ؟!

لوحت بيدها الممسكة بالسيجارة فى أناقة ، قائلة بنفس اللهجة الساخرة :

- فقط كنت أتساءل : كيف يمكن أن يكتسب المقاتل خبرات كافية ، عندما يهاجم العزل والضعفاء ، وهو مدجج بالأسلحة ، ويرتدى دروعاً واقية من الرصاصات ؟!

انتفض جسده فى غضب ، وهو يقول :

- نظم القتال الحديثة تختلف عما سبق أيتها الزعيمة .. الجيوش الآن تحرص على حياة أفرادها وقادتها ، بكل ماتملك من وسائل .

تساءلت فى سرعة :

- وهل يحميكم هذا بالفعل ؟!

خيل إليه أن حديثها المستفز هذا يستهدف السخرية منه ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وتراجع بحركة حادة ، وعادت يده تثب إلى مقبض مسدسه ، فرفعت هى أحد حاجبيها ، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، وقالت فى هدوء :

- كل ما أردت قوله ، هو أن اهتمامكم بحماية أنفسكم ، والخوف على حياتكم ، هو نفسه الذى يمنح المقاومة ، فى (أفغانستان) و (العراق) كل قوتها .

قال في حدة ، وصرامة :

- قولك لا معنى له أيتها الزعيمة .

أطلقت ضحكة طويلة ، ثم نفثت دخان سيجارتها ، وقالت :

- بالطبع .. قول كهذا ، لا يمكن أن يعني لمثلك شيئاً ، فمن المستحيل أن يستوعب شخص ، يولي كل الاهتمام لحياته في الحروب ، منطق رجل مقاومة ، أتى ليحاربه ، وهو أحرص على الموت ، منه إلى الحياة .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول في حدة :

- بدأت تتحدثين مثلهم أيتها الزعيمة !

هزت كتفيها ، قائلة في استهتار :

- لن يمكنني هزيمتهم ، إلا لو عرفت أسلوب تفكيرهم بالضبط .. « أليس كذلك ؟! » .

بذل جهداً حقيقياً في محاولة استيعاب قولها ، ثم لم يلبث أن طرح كل محاولاته جانباً ، وعاد يشد قامته ، قائلاً في صرامة :

- فليكن أيتها الزعيمة .. المهم أن تكوني قد تأكدت الآن ، من أن ذلك المصري ، قد لقي مصرعه في الانفجار .. إنك لن تتصوري ما أصاب الحجرة ، عندما ..

قاطعته في برود :

- ولماذا أتصور ؟!

ثم ضغطت أحد أزرار لوحة التحكم الرئيسية ، مستطردة :

- يمكنني أن أرى بنفسي الآن .

مع ضغطتها ، ظهرت على إحدى شاشات الرصد صورة حجرة معادلة الضغط ، التي نسفها الانفجار ، مع الأشلاء البحرية السابحة داخلها ، والتي انقضت عليها أسراب من الأسماك ، تنهش بقاياها نهشاً في شراهة ، فتابعت هي :

- هل نسيت أننا نمتلك كاميرا مقاومة للماء هناك ؟!

غمغم الرجل ، وهو يتابع المشهد معها :

- كلا .. لم أنس .

ثم تنحنح ، واستطرد في صرامة :

- ولكن هذا يؤكد ما حدث .

هزت كتفيها مرة أخرى ، ونفثت دخان سيجارتها ، قائلة :

- إنها مجرد أشلاء ، لا تحمل توقيعات أصحابها .

بدا صوته أشبه بالزمجرة ، وهو يقول :

- الرجال أحضروا عينات منها كما أمرتهم ، لمراجعتها على عينات الحمض النووى ، التى أُخذت من ذلك المصرى ، أثناء غيبوبته .

قالت فى هدوء :

- هذا صحيح .

ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قبل أن تتابع :

- فحص الحمض النووى ، وتحديد البصمة الجينية ، صار أمرًا معروفًا فى العصر الحديث ، حتى إن علم الجاسوسية أضاف إليه فرعًا آخر ، وهو التجسس البيولوجى ، حيث أصبح الشغل الشاغل ، لعدد من رجال المخابرات ، فى عشرات الدول ، هو الحصول على أية عينات بيولوجية مؤكدة ، من القادة والزعماء ، فى كل أنحاء العالم ، حتى يمكن تحديد هوياتهم أو أشلائهم ، أو حتى كشف تاريخهم المرضى ، وموروثاتهم ، وسماتهم النفسية فى بعض الأحيان(*) .

انعقد حاجباه ، وهو عاجز عن استيعاب حديثها ، فضحكت مرة أخرى ، ثم قالت فى سخرية :

(*) حقيقة .

- هل يمكنك أن تتخيل هذا ؟! قطرة عرق منك ، أو نقطة دم ، أو شعرة رأس ، أو حتى قليل من اللعاب ، تكفى لتعرف كل شىء عنك ، حتى هواجسك ونزواتك .

انتفض جسده فى عنف ، وهو عاجز عن استيعاب الموقف كله ، فابتسمت هى فى سخرية شديدة ، واستدارت إلى أجهزتها ، قائلة :

- لن يمكنك بالطبع تخيل هذا .

كانت سبابتها تتجه نحو زر الاتصال الرئيسى المؤمّن ، عندما أضيئت إحدى شاشاتها فجأة ، وظهر عليها وجه مسئول اتصالاتها ، وهو يقول فى توتر بالغ عنيف :

- أيتها الزعيمة .. أعتقد أنه من الضرورى أن تطالعى هذا .

ومع آخر حروف عبارته ، اختفت صورته من الشاشة ، وحلت محلها نشرة أخبار الطوارئ ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى تذيع خبرًا طازجًا للغاية ..

وانعقد حاجبا الزعيمة فى شدة ..

فالخبر كان مفاجئًا ومذهلاً ..

بحق .

* * *

٤- الخدعة الكبرى..

سرى التوتر فى كل ذرة من كيان (منى توفيق) ، وهى تتلقى الأمر ببدء تنفيذ الخطة (ب) ، وتضاعف وهى تقرأ البرقية الشفرية العاجلة ، التى وصلت منذ لحظات من (القاهرة) :

- وماذا حدث للخطة (أ) ؟!

« ليس هذا من شأننا » .

أتى الصوت من خلفها مباشرة ، فاستدارت إلى (قدرى) ، الذى التهم قضمة كبيرة من شطيرته الساخنة ، قبل أن يتابع :

- هذا ما تعلمناه منذ البداية .. أليس كذلك ؟! المعرفة بقدر الحاجة .

قالت فى عصبية ، وهى تشعل النار فى البرقية :

- المفترض أن (أدهم) هو المسئول عن الخطة (أ) .

هز كتفيه المكتنزين ، قائلاً :

- ومن أدراك ؟! لم يخبرنا أحد بهذا رسميًا .

قالت فى ضيق :

- إنها خبرة العمل .

ثم انخفض صوتها كثيرًا ، وهى تضيف :

- وقلب المحب .

ارتفع حاجبا (قدرى) ، وهو يتطلع إليها فى توتر ، قبل أن يهز رأسه ، ويقول فى خفوت :

- كلاهما لا مجال له هنا .

تمتمت :

- أعلم هذا .

ثم شدت قامتها ، وراحت تشحن نفسها بشعور قائدة الفريق ، قبل أن تسأله :

- أين الباقون ؟!

أشار بيده الممسكة بالشطيرة ، قائلاً :

- (شريف) يعمل على الكمبيوتر كعادته ، و (ريهام) تحاول صنع قنبلة ، من مزج صابون الوجه بمثبت الشعر .

انعقد حاجباها قليلاً ، فى حين التهم هو قضمة أخرى من شطيرته ، ثم هزَّ رأسه ، قائلاً :

- لقد أحسن (أدهم) اختيار فريقه بحق(*) .

قالت فى حزم :

- إنه يحسن القيام بكل شيء .

رفع سبابته ، قائلاً فى حماس :

- أوافقك تماماً على هذا .

التقطت نفساً عميقاً ، لإحكام السيطرة على انفعالاتها ، ثم اتجهت فى خطوات قوية إلى الحجرة المجاورة ، وقالت بلهجة عسكرية صارمة :

- انتباه !

اعتدلت (ريهام) على الفور ، فى وقفة ثابتة ، فى حين ابتسم (شريف) ، وهو يقول :

هذا القول لا يتناسب مع عمل المخابرات ، ياسيادة المقدم .

أجابته (منى) فى صرامة :

- للضرورة أحكام .

(*) راجع قصة ([illegible]) .. المغامرة رقم (١٢١) .

هزَّ كتفيه فى بساطة ، والتفت إليها ، قائلاً :

- من حسن الحظ أننى لا أحمل رتبة عسكرية .

قالت (منى) بنفس الصرامة :

- من يدرى ؟! ربما كان هذا من سوء الحظ .

هزَّ كتفيه مرة أخرى ، قائلاً :

- ربما .

ابتسمت (ريهام) ، وهى تقول :

- معذرة يا سيادة المقدم ، ولكن الذين لم يعتادوا العسكرية ، صعب عليهم التعايش معها ، فى أوقات الشدة .

هتفت (منى) :

- للأسف .

ثم بدأت تتحرك فى المكان ، محاولة تخفيف الموقف ، وهى تتابع :

- والآن ، دعونا من كل هذا ، واستمعوا إلىَّ جيداً .. لقد صدرت أوامر جديدة من (القاهرة) .

وتوقفت لتشد قامتها مرة أخرى ، مستطردة فى حزم :

- بدء تنفيذ الخطة (ب) .

انعقد حاجبا (ريهام) في توتر، على عكس (شريف)، الذي ابتسم، قائلاً في حماس:

- عظيم.

ناولته (منى) أسطوانة كمبيوتر مدمجة، وهي تقول:

- هذه الأسطوانة تحوي كل تعليمات الخطة (ب)، بشفرة خاصة للغاية، وكان المفترض ألا نطالعها، إلا عندما تصدر أوامر بدء التنفيذ.

التقطها منها (شريف) في رشاقة، ووضعها في الجزء الخاص بها، من جهاز الكمبيوتر، وهو يقول:

- دعينا نرى ما تحويه.

بدأت أسطوانة الكمبيوتر عملها تلقائيًا، فور وضعها في الجهاز، وظهرت على الشاشة رسالة، تطلب إدخال الرقم السري، ومفتاح الشفرة الخاصة، فأدار (شريف) الجهاز نحو (منى)، قائلاً:

- تفضلي.

أدخلت (منى) الرقم السري، ومفتاح الشفرة الخاصة في سرعة، ثم أعادت الكمبيوتر إليه، وهو يحمل رسالة تعلن قبول ما أدخلته للتشغيل..

ثم بدأت الأسطوانة المدمجة عملها مرة أخرى، و...

وفجأة، انطلق أزيز قوي، من جهاز الكمبيوتر، فهتف (شريف)، وأصابعه تقفز إلى لوحة الأزرار في لهفة:

- يا إلهي!

سألته (منى) في توتر شديد، والثلاثة يندفعون نحوه:

- ماذا يحدث بالضبط؟!

صاح بهم (شريف)، وأصابعه تتقافز بسرعة مدهشة، على لوحة الأزرار:

- إنها محاولة خارجية، لنسخ الأسطوانة.

هتفت (ريهام) في دهشة:

- ولكن الكمبيوتر لا يتصل حتى بشبكة الهاتف.

صاح في انفعال جارف:

- هذا النوع من الأجهزة المحمولة، يمكنه الاتصال بشبكات الإنترنت، عبر الأقمار الصناعية مباشرة.

تحركت (منى) في توتر شديد، محاولة القيام بأي شيء، وهي تهتف:

- أخرج الأسطوانة إذن.

وهتف (قدرى) :

ـ أو افصل التيار عن الجهاز ..

صاح (شريف) ، وأصابعه تعمل بسرعة أكبر :

ـ إننى أحاول ، ولكن أحدهم يسيطر على الكمبيوتر تمامًا ، ويمنع حتى محاولات إغلاقه .

سحبت (منى) مسدسها ، وهى تهتف فى صرامة :

ـ لا يوجد سوى حل واحد إذن .

أزاحت (شريف) جانبًا ، وهى تصوب مسدسها إلى جهاز الكمبيوتر المحمول .. ثم أطلقت النار ..

خمس رصاصات متتالية ، أصابت جهاز الكمبيوتر ، ونسفته نسفًا ، وتطايرت أجزاؤه فى كل مكان ، فتراجع (قدرى) هاتفًا :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

أما (شريف) ، فقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدق فى حطام الكمبيوتر المحمول ، فى حين هتفت (ريهام) :

ـ ولكن كيف ؟! كيف ؟!

قالت (منى) فى صرامة ، وهى تعيد مسدسها المزود بكاتم للصوت ، إلى غمده المعلق تحت إبطها :

ـ لست أدرى كيف حدث هذا ، فهذه مهمة (شريف) ، باعتباره خبير الكمبيوتر والاتصال ، ولكننى أستطيع أن أقول لماذا ؟!

وشدت قامتها فى حزم ، مستطردة :

ـ أحدهم يعرف من نحن بالضبط ، ولماذا نفعل هذا ، ويسعى لكشف كل أسرارنا .

قال (شريف) فى توتر :

ـ ولكن أحدهم هذا ليس شخصًا عاديًا بالتأكيد ، فاختراق أى جهاز كمبيوتر ، يحتاج إلى دس برنامج خاص داخله ، ومثل تلك البرامج ، لا يمكن أن تتسلل ، دون أن يكشفها برنامج متطور للغاية ، أضعه داخل الجهاز ، والتغلب على مثله ، يحتاج إلى تكنولوجيا شديدة التطور ، إلى حد يصعب أن يمتلكه شخص عادى .

هتفت (ريهام) :

ـ رباه ! هذا قد يعنى أن خصمنا هو أجهزة الأمن الأمريكية نفسها .

هز (قدرى) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ مستحيل يا بنيتى ! جوازات السفر الدبلوماسية ، التى حصلنا بها على تأشيرات الدخول سليمة ورسمية تمامًا ، وليس من الممكن أن ..

قاطعته (منى) فى حزم، قبل أن يتم عبارته:

- هذا ليس أسلوب أجهزة الأمن الأمريكية.

وانعقد حاجباها، وهى تضيف فى توتر:

- إنه أسلوب أجهزة إجرامية .. ضخمة.

سألتها (ريهام)، فى سرعة واهتمام:

- مثل ماذا ؟!

أشارت (منى) بسبابتها، قائلة فى حزم:

- نعم .. هذا هو السؤال .. مثل ماذا ؟!

لم تكد تتم عبارتها، حتى هتف (قدرى)، وهو يحدق فى جهاز التليفزيون البعيد.

- رباه!

استدار الجميع فى سرعة إلى شاشة التلفاز، فى آخر الحجرة، والتى تذيع خبراً مثيراً بالفعل..

مثير للغاية!

* * *

« هل تعتقدون أن الشعب سيصدق هذا ؟! »

ألقى الرئيس الأمريكى السؤال فى عصبية، وهو يتابع الخبر الطارئ الذى تذيعه كل القنوات الإخبارية بلا استثناء، فزفرت مستشارة الأمن القومى فى توتر، قائلة:

- ليس المهم أن يقتنع الشعب، فمن السهل إقناع العامة بأى شىء، فى ظل الخوف المستمر، الذى زرعناه فى النفوس، ومع التحذيرات الوهمية المتصلة، باحتمالات وقوع ضربات إرهابية عنيفة، من تنظيم (القاعدة) أو غيره من التنظيمات.. المهم أن تنجح فى إقناع (الكونجرس) بما رتبناه، مع حليفنا مستر (X).

بدا وزير الدفاع شديد التوتر، وهو يقول:

- هذا ليس بالأمر السهل.

قالت فى حدة:

- ابذل أنت والرئيس قصارى جهدكما إذن، فى حين سأتولى أنا مسئولية شحنة الذهب، وترتيبات تسليمها إلى تلك الحفرة.

قال الرئيس فى عصبية:

- تتمكنين من المواجهات العسيرة كعادتك.

قالت في غضب :

ـ بل أوكلني الأمور الصعبة والمعقدة كالمعتاد .

قال وزير الدفاع في عصبية :

ـ ومن أدراك أنها صعبة ومعقدة .. تلك الزعيمة لم تعلن حتى ترتيبات تسليم الشحنة بعد ؟!

قالت في حدة :

ـ ستفعل حتمًا ، عندما يروق لها هذا .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى أضيئت شاشة الاتصال ، الخاصة بقنوات مستر (X) ، على نحو يجعل الرئيس يعتدل في مقعده ، قائلاً في توتر :

ـ لماذا يحاول هذا الرجل الاتصال الآن ، دون موعد سابق ؟! تُرى هل يحمل لنا أخبارًا جديدة ؟!

اعتدلت مستشارة الأمن القومي بدورها ، وهي تقول :

ـ أتعلمون هذا ، ففي المرة السابقة ، قال : إنه قد يتوصل إلى هوية تلك الـ ...

بترت عبارتها بغتة ، واتسعت عيناها عن آخرهما في ذهول ، وانتفض جسد الرئيس في عنف ، في حين قفز وزير الدفاع من مقعده ، صائحًا :

ـ مستحيل ..

فالصورة التي ظهرت على الشاشة ، لم تكن صورة مستر (X) ، بوجهه الغارق في الظلمة كالمعتاد ..

بل كان وجهها هي :

وجه الزعيمة ..

ومع ظهور وجهها ، انطلقت من حلقها ضحكة عالية عابثة ، ارتجفت لها قلوبهم في قوة ، قبل أن تقول في سخرية :

ـ أراهن أن رؤيتي ، على هذه الشاشة بالتحديد ، قد أدهشتكم جميعًا .. أليس كذلك ؟!

مضت لحظات ثقيلة من الصمت ، قبل أن يقول الرئيس في توتر بالغ :

ـ أظنك تربحين الرهان هذه المرة .

قالت الزعيمة في سرعة :

ـ وكل المرات يا سيادة الرئيس .. أعدك بهذا .

عضت مستشارة الأمن القومي شفتيها في قهر ، وسقط وزير الدفاع جالسًا على مقعده ، في حين نفثت الزعيمة دخان سيجارتها الحمراء الطويلة ، في بطء واستمتاع ، قبل أن تقول :

— أتوقع أنني لم أتوصل إلى الوكر السري لحليفكم الجديد بعد، فقد كان من الذكاء، بحيث يقطع الاتصال، بينه وبينكم، فور إدراكه أننا نتعقبه، ولكن الفترة التي مضت، حتى إدراكه هذا، مكنتنا من تحديد موجة الاتصال، على نحو أتاح لي مقابلتكم هكذا.

خيم عليهم الصمت الثقيل، بضع لحظات أخرى، بعد أن أكملت عبارتها الساخرة، ثم قطعته مستشارة الأمن القومي، وهي تقول في حدة:

— ماذا تريدين هذه المرة بالضبط؟!

أجابتها الزعيمة في سرعة:

— أريد أن أخبركم أن عقد اتفاق التبادل المعلوماتي، الذي وقعتموه مع مستر (X)، كان أكبر حماقة ارتكبتموها، في حياتكم كلها.

امتقعت وجوه ثلاثتهم في شدة، واتسعت عينا وزير الدفاع في ارتياع، وهو يغمغم:

— ولكن كيف.. كيف..

قاطعته الزعيمة مواصلة، وكأنها لم تسمعه:

— أما قائمة الجواسيس والعملاء، التي منحتكم إياها كهدية

توقيع، فهي خاصة بمن يعملون في صفوف قياداتكم العليا، لحساب (الموساد)، وليس لحسابي أنا.

هتفت مستشارة الأمن القومي:

— مستحيل.

تابعت الزعيمة بلهجة ساخرة، وكأنما يروق لها كثيرًا اضطرابهم وتوترهم الشديد:

— أما الحماقة الكبرى، فهي تعاونكم معه، لتدبير ذلك الهجوم الإرهابي الساذج، على قلعة (فورت نوكس)، لتبرير استيلائكم على شحنة الذهب.

قال الرئيس في توتر:

— كنا نحاول تدبير ما طلبتيه، دون الدخول في مشكلات سخيفة مع الكونجرس.

أطلقت ضحكة عالية طويلة، قبل أن تقول، وهي تنفث دخان سيجارتها الحمراء في استمتاع:

— ولكنني طلبت مائة مليار دولار من الذهب، وليس مائة وسبعة مليارات.

كاد وزير الدفاع يثب في مقعده، مع النظرة القاسية

الصارمة ، التي رمقه بها الرئيس الأمريكي ، في حين قالت مستشارة الأمن القومي في عصبية :

- كان الأمر سيبدو أحمقاً للغاية ، لو قلنا : إن الإرهابيين قد استولوا على ما قيمته مليار دولار من الذهب بالضبط .

أطلقت الزعيمة ضحكة طويلة أخرى ، ثم قالت في سخرية :

- لن يبدو الأمر أحمقاً أكثر ، عندما تحاولون إقناع الكونجرس ، وكل الأجهزة الأمنية الأخرى ، بأن الإرهابيين قد أمكنهم بالفعل شن هذا الهجوم المزعوم ، على قلعة (فورت نوكس) ، بكل تحصيناتها الدفاعية القوية ، واستولوا على شحنة هائلة من الذهب بهذه البساطة ، في ظل إجراءات أمنية مضاعفة مرتين ، بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م ؟!

ازدردت مستشارة الأمن القومي لعابها في صعوبة ، وقالت في توتر :

- لقد استعرنا الفكرة من فيلم سينمائي قديم ، ونفذنا الهجوم بالفعل ، عن طريق رش غاز منوّم ، عديم اللون والرائحة ، في سماء المنطقة ، حتى فقدت كل قوات الأمن والحراسة وعيها ، وبعدها استخدمنا طائرة موجهة عن بعد ،

بدون طيار ، ومزودة بشحنة متفجرات ضخمة ، لتسقط على جدار خزانة الذهب ، وتنسف أسوارها ، ثم استخدم الرجال ، الذين استعنا بهم ، شفرة الدخول الرقمية ، التي زودناهم بها ، و ..

قاطعها الرئيس في حدة :

- لماذا تشرحين لها كل هذه التفاصيل ؟! ما أدراك أنها لا تسجل كل حرف نطقت به الآن ؟!

انتفض جسد مستشارة الأمن القومي بمنتهى العنف ، كما لو أصابتها صاعقة قاتلة ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، في ارتياع بالغ ، جعل الزعيمة تطلق ضحكة طويلة هذه المرة ، قبل أن تقول في سخرية :

- لست بحاجة إلى تسجيل هذا ، أو حتى تفاصيل ما حدث هناك ، في (فورت نوكس) ، فأقمار المراقبة الصناعية سجلت كل ما حدث ، ولدي فيلم شديد الوضوح لهذا ، يمكنني إعارتكم إياه فيما بعد .

ازداد وزير الدفاع انكماشاً في مقعده ، وقد التهبت مشاعره كلها داخله ، على الرغم من غطرسته المعتادة ، في الأزمات السابقة ، وظلت مستشارة الأمن القومي تحدق في شاشة جهاز

الأصلع الخاص بعينين متسعتين مذعورتين ، في حين تمالك الرئيس نفسه في صعوبة ، وقال في خفوت ، حمل كل توتر الدنيا :

– فليكن أيتها الـ .. الزعيمة .. كيف تريدين تسلُّم شحنة الذهب بالضبط ؟!

نفثت الزعيمة آخر أنفاس سيجارتها الطويلة ، ثم ألقتها بامتداد ذراعها عبر الحجرة ، قبل أن تقول في صرامة :

– سأخبركم بالتفاصيل وترتيبات تسليم الشحنة كلها ، ولكن بعد إجابتي على سؤال واحد .

ثم قسا صوتها ، وحمل رنة شرسة ، وهي تستطرد :

– هل عثرتم بالفعل على جثة (أدهم صبري) ؟!

ازدرد الرئيس لعابه ، مجيبًا في صعوبة :

– قبطان مدمرتنا (أيزنهاور) أبلغنا بهذا ، والمفترض أن الجثة في طريقها إلى هنا الآن .

أشعلت سيجارة حمراء طويلة أخرى ، وهي تقول في شراسة زائدة :

– أريد هذه الجثة ، مع شحنة الذهب .

بدا صوت وزير الدفاع شديد الشحوب ، وهو يقول :

– ولكن هذا مستحيل ! المصريون يطلبون هذه الجثة في إصرار شديد .

قالت الزعيمة ، في وحشية مخيفة ، امتزجت بشراسته :

– وأنا أصرّ على الحصول عليها ، مع شحنة الذهب .

تبادل الثلاثة نظرة ممتقعة شاحبة ، قبل أن يقول الرئيس في عصبية :

– فليكن .

وأضافت مستشارة الأمن القومي في حدة :

– على الرغم مما سيسببه لنا هذا ، من مشكلات مع المصريين .

أطلقت الزعيمة ضحكة وحشية ، وهي تقول :

– حقًّا .

ثم اعتدلت في مقعدها ، ونفثت دخان سيجارتها الجديدة ، في وجه الثلاثة مباشرة ، وهي تقول :

– على أية حال ، أنا أصرّ على منحكم هدية القلق ، تمامًا مثلما منحكم مستر (X) هدية توقيع .

مع قولها ، اختفت صورتها عن الشاشة ، وظهر بدلاً منها مشهد صاروخ يتم إعداده ، لحمل رأس نووى ، فى مهمة خاصة ، فى مكان تفترض سريته التامة ، فى قلب صحراء (نيفادا) الأمريكية ، فشهقت مستشارة الأمن القومى ، هاتفة فى ارتياع :

- رباه ! إنه ..

لم تستطع إكمال قولها ، ولكن الرئيس ووزير الدفاع استوعبا ما تعنيه ، دون الحاجة لنطق حرف واحد ..

فما ظهر على الشاشة ، كان ذلك الصاروخ ، الذى يتم إعداده بمنتهى السرية ؛ لإطلاقه نحو القمر الدفاعى ، الذى يحمل مدفع الليزر الفضائى ..

ومع الصورة ، انبعث صوت الزعيمة ، وهى تقول :

- أنتم تعرفون هذا الشىء بالطبع .. أليس كذلك ؟!

كم يؤسفنى كل ما تجشمتموه دون طائل .

مع آخر حروف كلماتها ، بدا الصاروخ على الشاشة ، وهو يتألق فى شدة ، قبل أن يدوى الانفجار فجأة ..

انفجار رهيب ، أطاح بالصاروخ ، وقاعدته ، وكل المبانى الصغيرة المحيطة به ، بكل ما فيها ، ومن فيها ..

وتلاحمت أجساد الثلاثة مع الانفجار ، الذى بدا بشعاً رهيباً على الشاشة ممتزجاً بصوت الزعيمة ، وهى تقول :

- من حسن حظكم ، أن الرأس النووى لم يكن قد وضع فى داخله بعد ..

قالتها ، وأطلقت ضحكة عابثة طويلة أخرى ، امتزجت هذه المرة برنة خاصة ، هوت معها قلوبهم جميعاً ..

- رنة شامتة ، ساخرة ..

وظافرة ..

فما حدث كان يعنى أنها ما زالت تمسك بزمام الأمور فى قبضتها ..

كل الأمور .

وأنها ، من الناحية العملية والفعلية ، قد صارت بالفعل صاحبة السيطرة .

السيطرة الكاملة .

* * *

٥ـ الاختيار..

لم يتمالك (قدرى) نفسه من الضحك، وهو يتطلع إلى هيئته الجديدة، فى مرآة الردهة الكبيرة، التى تتوسط ذلك المنزل الفسيح، فى ضواحى (واشنطن)، وظل جسده الضخم يرتج بأكمله:

ـ لم أتصور نفسى قط فى هذه الهيئة.. إننى أبدو أشبه بخدم المنازل الإنجليزية العريقة.

قالت (منى)، وهى تثبت شعرها الأشقر المستعار على رأسها:

ـ المفترض أن هذا هو الدور الذى ستلعبه بالفعل، فى هذا المنزل الآمن الاحتياطى.

قال مبتسماً:

ـ أعلم هذا.

ثم غمز بعينه، مضيفاً:

ـ أنسيت أننى من صنع بطاقات الهوية المزورة، التى ستتحركون بها، وسط النظم الأمنية الأمريكية الجديدة ؟!

كان ينتظر منها ابتسامة هادئة على الأقل، إلا أنها أجابته، فى شىء من الصرامة والحزم:

ـ كلا.. لم أنس.

ثم استدارت إلى (ريهام) و (شريف) مستطردة:

ـ هل تحفظان أدواركما جيداً ؟!

أجابتها (ريهام)، بلهجة عسكرية حازمة:

ـ بالتأكيد يا سيادة المقدم.

أما (شريف)، فقال فى توتر:

ـ إننا محترفون يا سيادة المقدم، ولو راجعت ملفنا، ستجدين فيه توصية بهذا الشأن، بخط الأستاذ نفسه.

رفعت (منى) حاجبيها، مرددة:

ـ الأستاذ ؟!

أجابها فى توتر أكثر:

ـ نعم... يا سيادة العميد (أدهم) شخصياً.

استرجع ذهنها تفاصيل تلك العملية العنيفة، التى خاضتها

(شريف) و(ريهام)، وزميلهما الراحل (علاء)(*)، تحت قيادة (أدهم)، في قلب (موسكو)، وتنهدت في عمق، قائلة:

- ليست لدي ذرة واحدة من الشك، في كفاءة أي منكم يا (شريف).

ثم لوحت بكفيها، قبل أن تتابع:

- ولكن ما يثير أعصابي، هو أن الأمر بلغ مبلغ الخطورة بالفعل هذه المرة، وانتقال (القاهرة) إلى الخطة (ب)، يعني أن الموقف قد تدهور كثيرًا، خلال الخطة الأساسية.

وقاومت في صعوبة تلك الدموع، التي ترقرقت في عينيها، وهي تضيف:

- التي كان يتولاه (أدهم).

هتف (شريف) و(ريهام) في آن واحد:

- الأستاذ ؟!

ثم أضافت (ريهام) في غضب:

- ولماذا لم يخبرنا أحد بهذا ؟!

(*) راجع قصة (مدينة الذئاب) .. المغامرة رقم (١٣٧).

قالت (منى)، وهي تبذل جهدًا أكبر؛ للسيطرة على مشاعرها:

- ليس من المفترض أن يفعل أحد هذا، فكل ما علينا هو أن نؤدي أدوارنا فحسب.

شدّ (شريف) قامته، وهو يقول في حزم:

- نحن مستعدون لفعل أي شيء في الوجود، من أجل الأستاذ.

وافقته (منى) بإيماءة من رأسها، قبل أن تتخذ أقرب مقعد إليها، قائلة بلهجة قلقة:

- هذا صحيح، ولكن ينبغي الآن أن نفعل أي شيء في الوجود .. من أجل (مصر) وحدها.

تبادل (شريف) و(ريهام) نظرة صامتة، ثم قال هو في اهتمام:

- إنني أحتاج إلى كمبيوتر محمول جديد، من أحدث طراز ممكن، وسأبذل قصارى جهدي؛ للحصول على تفاصيل الخطة، التي تنهج خصومنا، أيًا كانت هويتهم، في نسختها كاملة، قبل أن تنسف رصاصاتك الأسطورية، يا سيادة المقدّم.

غمغمت (منى) :

- أنت تعلم أنني كنت مضطرة لهذا .

ثم أضافت في حزم :

- ثم إن الخطة (ب) لم تعد لها أية فائدة ، بعد أن حصل الخصوم عليها ، وعلينا أن نلجأ إلى خطة جديدة .

وانعقد حاجباها ، وهي تضيف :

- وارتجالية .

تساءلت (ريهام) :

- ولماذا لا نطلب من (القاهرة) ، إرسال نسخة أخرى من الخطة الاحتياطية ؟!

هزّ (قدرى) رأسه ، قائلاً :

- لأنك لا تستطيعين استخدام أية شبكة اتصالات ، مهما بلغت درجة تأمينها ، قبل معرفة الكيفية ، التي أمكنهم بها نسخ أسطوانتنا الأولى .

أشار إليه (شريف) قائلاً في حزم :

- بالضبط .

ثم أضاف في حماس ، وهو يلوّح بكفيه في الهواء :

- لهذا أريد جهاز الكمبيوتر الجديد .. لابد أن أعرف كيف فعلوا هذا ، قبل اتخاذ أية خطوة جديدة .

سألته (منى) في اهتمام :

- وكيف يمكنك معرفة السبب ، بعد أن نسفت رصاصاتي جهاز الكمبيوتر القديم ؟!

أخرج قطعة معدنية من جيبه ، وهو يقول في حماس :

- ليس كل قطعة منه .

سألته (منى) :

- ما هذا بالضبط ؟!

أجابها بنفس الحماس :

- إنه القرص الصلب الرئيسي ، للكمبيوتر المحطّم القديم ، فمن حسن طالعنا ، أو من حسن تصاريف القدر ، أن رصاصاتك قد تجاوزته ، دون أن تتلفه .

سأله (قدرى) في اهتمام :

- ستقوم بنسخه إلى القرص الصلب ، في الكمبيوتر الجديد .. أليس كذلك ؟!

أجابه (شريف) في سرعة .

- بل سأوصله به فحسب ، وأفحصه بمجموعة من البرامج الحديثة جداً ، والمتطورة جداً ، التي أحضرتها معي من (القاهرة) .

تساءلت (منى) :

- أهذا ممكن حقاً ؟!

كانت تنتظر جواباً من (شريف) ، ولكن (قدري) أجابها ، قائلاً :

- بالطبع .. كل شيء ممكن في عالم الكمبيوتر ، لو أن المرء يمتلك ما يكفيه ، لشراء كل ما يلزم .

قالت (منى) في حزم :

- سنشتري كل ما تحتاج إليه يا (شريف) .. وفوراً .

قال (قدري) :

- لقد منحوك تلك البطاقة الائتمانية البلاتينية .. أليس كذلك ؟!

قالت (منى) :

- إنني أحملها دوماً ، ولكنني لن أستخدمها هذه [illegible]

أشار إليها (شريف) ، قائلاً :

- قرار حكيم يا سيادة المقدّم ، فبطاقات الائتمان يسهل تعقُّبها ، مهما بلغت قيمتها .

قالت (ريهام) بصرامة مفاجئة :

- لست أظن خصومنا بحاجة إلى هذا .

التفت الجميع إليها في تساؤل ، ورأوها تقف خلف ستارة النافذة مباشرة ، وهي تختلس النظر عبر فرجة ضيقة منها ، مستطردة :

- إنهم هنا بالفعل .

وصدمهم قولها بشدة ، فاندفعوا بدورهم نحو النافذة ، و(قدري) يهتف :

- ولكن كيف ؟!

قالت (منى) في سخط متوتر :

- لقد تبعونا حتماً ، في أثناء خروجنا ، من مقر البعثة الدبلوماسية .

قالت (ريهام) في دهشة :

- ولكننا خرجنا متنكرين ، في سيارة مغلقة .

قال (شريف) فى صرامة :

- هناك جاسوس لهم ، فى مقر البعثة الدبلوماسية حتماً .

غمغمت (منى) ، وهى تستل مسدسها فى حزم :

- أو أجهزة تنصّت ، تم زرعها فى أماكن خفية ، بدقة شديدة .

وفرك (قدرى) كفيه ، فى توتر شديد ، وهو يقول ، و(منى) تلقى نظرة ، عبر فرجة ستارة النافذة :

- ربما ألصقوا جهاز تعقّب ، بالسيارة التى نقلتنا إلى هنا .

انعقد حاجبا (منى) ، وهى تراقب تلك التحركات المنتشرة ، حول المنزل ، قبل أن تقول فى حزم ، وهى تستل مسدسها :

- أظننى أدين لكم بالاعتذار يا رفاق .

سألتها (ريهام) فى دهشة :

- الاعتذار ؟! ولماذا ؟!

جذبت (منى) مشط مسدسها ، وتركته ينزلق عائداً إلى موضعه ، مع تكة معدنية مميّزة ، وهى تجيب فى صرامة :

- هذا أسلوب أجهزة الأمن الأمريكية .

اتسعت عيونهم جميعاً فى دهشة ، وتساءل (قدرى) :

- ولكن لماذا ؟! لماذا تهاجمنا أجهزة الأمن الأمريكية ؟

ازداد انعقاد حاجبى (منى) ، وهى تقول :

- ليس هذا هو السؤال يا (قدرى) .. السؤال الحقيقى هو : لحساب من تهاجمنا أجهزة الأمن الأمريكية .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى انفجر باب المنزل بمنتهى القوة ، و ...

وبدأ الهجوم ..

بمنتهى العنف ..

ومن كل الاتجاهات ..

* * *

« بل السؤال الحقيقى هو لماذا ؟! »

قالت الزعيمة العبارة ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى بطء ، فالتقى حاجبا قائد قواتها فى قوة وتوتر ، وهو يتساءل :

- لماذا (ماذا) أيتها الزعيمة ؟!

هزّت رأسها في هدوء ، وهي تسأله :

ـ لماذا بقيت جثة (أدهم) وحدها سليمة ، في الوقت الذي تمزقت فيه جثث باقي الرجال ، من شدة الانفجار ؟!

قال في سرعة :

ـ ربما ..

ثم بتر عبارته ، فور تجاوز الكلمة لشفتيه ، وامتلأت نفسه بحيرة شديدة ، وهو يبحث عن جواب ..

أي جواب ..

وعندما طال صمته ، أطلقت هي ضحكة قصيرة ، ثم نهضت ، قائلة :

ـ لا تفكِّر في جواب السؤال .. إنه يفوق قدراتك العقلية بكثير .

بدا عليه الغضب ، وهمّ بقول شيء ما ، إلا أنها قاطعته في صرامة :

ـ ما أخبار (تيا) ، وحارس حجرة الطوربيدات ؟! لقد كدت أنسى أمرهم ، في خضم الأحداث .

قال في شيء من العصبية ، وهو يحاول كتمان مشاعره :

ـ ما زالوا في زنزانتهم أيتها الزعيمة ، في انتظار أوامرك .

أشاحت بوجهها عنه ، والتقطت نفساً عميقاً من سيجارتها ، نفثته في عمق وبطء ، وهي تفكر طويلاً ، قبل أن تلتفت إليه مرة أخرى ، قائلة بلهجة آمرة صارمة :

ـ أريد ثلاثتهم في قاعة التدريب .. الآن .

سألها في اهتمام :

ـ وحدهم .

هزت رأسها في بطء ، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قائلة :

ـ كلاّ .. أريد معهم ضباطك وجنودك أيضاً .. لابد أن يشاهدوا العقاب بأنفسهم .

وترقصت على شفتيها ابتسامة وحشية جذلة ، وهي تضيف :

ـ وسيفيدهم هذا كثيراً .

خرج قائد قواتها من حجرتها ، وهو يكاد يقسم أنها مجنونة تماماً ، ولم تمض دقائق عشر ، حتى كان الجميع داخل قاعة التدريب ، كما أمرته تماماً ..

(تيا) .

والحارسان الضخمان ..

والضباط والجنود ..

وهو ..

ومن المفارقات المدهشة أن (تيا)، الصينية الحسناء، كانت أكثر الجميع تماسكاً ..

فالضباط والجنود كانوا متوترين، لرؤية زميليهما الحارسين، اللذين راحا يرتجفان في ارتياع، في حين بدا قائد القوات عصبياً بشدة، وهو يتساءل عن طبيعة العقاب، الذي تدخره الزعيمة لرجليه.

كان من المفترض أن تصل الزعيمة إلى قاعة التدريب، عقب وصول الجميع، إلا أن ثلاث دقائق كاملة مضت، دون أن تصل إلى المكان، فغمغم قائد القوات، وقد زاده تأخرها عصبية:

ـ متى ستأتى.

لم يكد يتم عبارته، حتى أضيئت الشاشة الكبيرة في قاعة التدريب فجأة، وظهرت عليها صورة الزعيمة، وهي تنفث دخان سيجارتها الحمراء الطويلة، وتقول في هدوء مخيف:

ـ أعلم أنكم تنتظرون قدومي جميعاً، ولكنني رأيت أن اللقاء عبر شبكة الاتصالات، سيناسب هذا الموقف أكثر.

مع نهاية قولها، هبطت حواجز فولاذية بسرعة؛ لتسد كل مداخل ومخارج القاعة، وتعزلها عن بقية المؤسسة تماماً، فسرت موجة من التوتر العصبي بين الجميع، مع همهمة مشفقة، جعلت الزعيمة تبتسم في ظفر وقوة، وهي تقول بنفس الهدوء المخيف:

ـ اطمئنوا .. إنني أمنح الأمر هيبته فحسب.

تمتم القائد في عصبية:

ـ لابأس أيتها الزعيمة .. لابأس.

نفثت دخان سيجارتها في بطء شديد، ونفثته بمنتهى القوة، وكأنما تتعمد استفزاز الضباط والجنود، الذين تابعوها على الشاشة في بطء، قبل أن تقول، في صرامة مفاجئة:

ـ من أول القواعد التي وضعتها، عندما بدأتم عملكم معي، هي ألا يتلقى أي مخلوق أوامره، إلا مني مباشرة، عندما يتعلق الأمر بالعمليات الخارجية، أو التغيرات الداخلية، أو التعامل مع المسجونين والأسرى .. أهذا صحيح ؟!

سرت همهمة خافتة، فابتسمت، ورفعت أحد حاجبيها وخفضته، ثم اعتدلت في مقعدها، وأضافت بنفس الصرامة:

ـ ولكن ثلاثة منكم تجاوزوا هذه القواعد.

تطلعت العيون كلها إلى (تيا) والحارسين ، اللذين وقفوا في منتصف القاعة تماماً ، في حين تراجعت هي مرة أخرى ، لتسترخي في مقعدها ، ونفثت دخان سيجارتها بنفس البطء ، ثم تقول ، مستعيدة ذلك الهدوء المخيف :

ـ لذا كان من الضروري معاقبتهم .. وبمنتهى الصرامة .

سرت موجة توتر أخرى في المكان ، وبدا قائد قواتها شديد العصبية ، وهو ينتظر أوامرها ، وراقبت هي ملامحه بضع لحظات ، على شاشة أخرى أمامها ، قبل أن تسأله في هدوء رهيب :

ـ قل لي يا قائد القوات : هل تدين لي بولاء حقيقي ؟!

انتفض القائد ، وهو يقول في توتر :

ـ بالتأكيد يا سيدتي .

سألته بنفس الهدوء :

ـ وهل يمكنك إثبات هذا ؟!

قال في حذر :

ـ بالتأكيد .

نفثت دخان سيجارتها بمنتهى العمق ، وتطلعت إلى الضباط والجنود عبر شاشة الاتصال ، لنصف دقيقة كاملة ، قبل أن تقول بصرامة مفاجئة :

ـ أعدم حارسي حجرة الطوربيدات إذن .. فوراً .

انتفض جسد القائد مرة أخرى في عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، فصاحت في صرامة وحشية :

ـ فوراً يا قائد القوات .

توتر الضباط والجنود في شدة ، وارتجف الحارسان في قوة ، وصرخ أحدهما ، وهو يسقط على ركبتيه :

ـ الرحمة .. الرحمة .

ولكن قائد القوات استل مسدسه ، وانعقد حاجباه في شدة ، وهو يصوِّبه نحو الحارسين ، قائلاً في حزم :

ـ أوامرك أيتها الزعيمة .

انهار أحد الحارسين ، وصرخ الآخر في رعب ، و ...

ولكن القائد ضغط زناد مسدسه ، دون ذرة واحدة من التردد ..

وانطلقت الرصاصات ..

وافترقت رأس الرجلين ، فى مشهد بشع ، سقطا بعده جثتين هامدتين ، وسط بركة من الدم .. وانتفض الكل فى توتر عنيف ..

فيما عدا (تيا) ..

وحدها ظلت قوية ، متماسكة ، وكأنما لا تهتز فى جسدها شعرة واحدة ، مع مواجهة الموت والدماء ..

وفى حجرتها رفعت الزعيمة أحد حاجبيها ، وهى تراقب (تيا) ، ثم ابتسمت ابتسامة وحشية ، قائلة :

ـ عظيم يا قائد القوات .. عظيم .

ثم مالت إلى الأمام ، متابعة فى صرامة :

ـ والآن ، دعونى أعرض عليكم هذا المشهد .

وبضغطة زر واحدة ، راحت الشاشة الكبيرة تعرض مشهدًا ، صوَّرته إحدى آلات المراقبة السرية ، منذ ساعات محدودة ..

مشهد (تيا) ، وهى تلتقى بقائد القوات ، وهو يقنعها بأن الزعيمة هى التى أمرت بالتخلُّص من (أدهم) .. وساد صمت رهيب ، داخل قاعة التدريب ، والكل يتابع حديث (تيا) وقائد القوات على الشاشة فى ذهول ..

أما قائد القوات نفسه ، فقد امتقع وجهه بمنتهى الشدة ، وأمسك مقبض مسدسه فى عصبية ، وهو يهتف :

ـ فليكن .. أنا فعلتها .. ماذا فى هذا ؟!

قالت الزعيمة فى صرامة ، وصورتها تعود إلى الشاشة الكبيرة :

ـ لقد خالفت القواعد الأساسية .

قال القائد فى حدة :

ـ الأحداث أثبتت أن موقفى كان صحيحًا مائة فى المائة .. لقد حاولت التخلُّص من ذلك المصرى ، قبل أن يفعل ما فعله بنا ، وقبل أن يدفع رجالنا الثمن بأرواحهم ، كما حدث بالضبط .

ثم التفت إلى ضباطه وجنوده ، صائحًا :

ـ لقد فعلت هذا من أجلكم يا رجال .. هل تفهمون ؟! من أجلكم .

كرَّرت الزعيمة ، فى صرامة وحشية :

ـ لقد خالفت القواعد ، وتستحق العقاب .

صرخ ، وهو يستدير إلى الشاشة في حدة :

- أي عقاب ؟! إنني قائد هؤلاء الرجال .. كلهم يدينون لي بالولاء ، ولا أحد سيرفع سلاحه في وجهي .

ابتسمت في سخرية ، وهي تقول :

- إنهم مرتزقة يا رجل .

صرخ :

- ولكنهم رجال .. وولاؤهم لي وحدي .

اتسعت ابتسامتها الساخرة ، وقالت في هدوء عجيب :

- مليون دولار نقدًا ، لأول من يطلق النار ، على رأس القائد .

وقبل حتى أن تتم عبارتها ، استل الجميع مسدساتهم في سرعة ، وانطلقت عشرات الرصاصات نحو قائد القوات ..

انطلقت لتنهال عليه كالمطر ، بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

واتسعت عينا الرجل عن آخرهما ، وتفجرت الدماء من كل مكان في جسده ، وسقط على ركبتيه ، والزعيمة تطلق ضحكة عنيفة ، قائلة :

- هذا ما أردت قوله يا رجل إنهم مرتزقة .. ولاؤهم للمال وحده .

وهوى القائد على وجهه جثة هامدة ، وهي ما زالت تطلق ضحكتها العنيفة ..

الظافرة ..

الطويلة ..

والوحشية ..

* * *

على الرغم من كل محاولاته ، لم يستطع مدير المخابرات الأمريكية إخفاء توتره وانفعاله ، وهو يجلس أمام شاشة اتصال خاصة ، في مكتبه الشخصي ، ويلوّح بيده ، قائلاً :

- لا .. لست أتفق معكم أبدًا .. ما تفعلونه قد يساهم في تدمير الاقتصاد الأمريكي ، مع مرور الوقت ، ولكنه لن يساعد حتمًا ، في الإيقاع بتلك الفاتنة !

أجابه مستر (X) ، الذي تبدو صورته على الشاشة ، بوجه غارق في الظلمة كالمعتاد :

- ما يفعلونه ليس اختياريًا ، بل هو إجباري ، بعد أن

بلغت هي تلك الحد من القوة .. لقد كشفت موجة اتصالنا ، التي كنا نظنها بالغة السرية ، وكادت تكشف موقعنا السري أيضاً ، لولا قوة وحساسية برامج كشف الاقتحام لدينا .

وتسلسله أيضاً !

قال مدير المخابرات في ضيق :

– وعلى الرغم من هذا ، فمن الواضح أن جهتك تحوي الكثير ، فها أنتذا تغير موجة الاتصال ، وتسلسله أيضاً !

قال مستر (X) في هدوء :

– إننا لم نبلغ هذا الحد من القوة والبأس ، باستخدام أساليب نمطية أو محدودة .

هز مدير المخابرات رأسه ، وتراجع في مقعده ، قائلاً :

– وعلى الرغم من قوتكم وبأسكم ، فقد كشفت هي كل الأمور ، كما لو أنها تمتلك كرة سحرية ، وأحكمت قبضتها وسيطرتها على كل الأمور .

قال مستر (X) في صرامة :

– لن يدوم هذا طويلاً .

لوّح مدير المخابرات بيده ، وهو يقول في توتر :

– ولن ينتهي بسرعة أيضاً .. إنهم سيسلمونها اليوم مائة مليار دولار ، من ذهب (فورت نوكس) ، الذي شاركتهم عملية نهبه المقتعلة ، وحصلت على خمسة مليارات دولار مقابل هذا .

تجاهل مستر (X) الجزء الأخير من العبارة ، وتساءل في اهتمام :

– وكيف سيسلمونها شحنة هائلة كهذه ؟! هل تعلم كم تزن كمية من الذهب ، تساوي مائة مليار دولار ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه ، قائلاً :

– نعم .. أعلم ، فلقد احتاج الأمر إلى مخزن ناقلة بترول هائلة ، لحمل الشحنة إلى المحيط .

بدا الاهتمام الشديد ، في صوت مستر (X) وهو يقول :

– إلى المحيط ؟! هل ستتم عملية التسليم في المحيط الأطلنطي ؟!

أجابه مدير المخابرات ، بعد زفرة عصبية :

– نعم .. في منطقة تم تحديدها بدقة من المحيط ، ولقد

صدرت الأوامر لكل قطع الأسطول ، بإخلاء تلك المنطقة ، وعدم الاقتراب منها ، لصنع دائرة آمنة تمامًا .

قال مستر (X) في بطء :

- ولكن عملية نقل شحنة ذهب هائلة كهذه ، سيحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل .

غمغم مدير المخابرات :

- بالتأكيد.

أدهشه أن قال مستر (X) في حماس :

- عظيم .

فاعتدل في مقعده ، وسأله في عصبية :

- وما العظيم في هذا ؟!

قال مستر (X) :

- لو أننا حددنا منطقة التسليم ، يمكننا إعداد خطة هجومية عنيفة ، نستخدم فيها مقاتلاتنا الخاصة ، لترد تلك الزعيمة الصاع صاعين .

قال مدير المخابرات في دهشة :

- ربما يمكن أن يفيدنا هذا ؟!

سأله مستر (X) في خبث :

- هذا يتوقف على المقصود بكلمة (يفيدنا) هذه .. هل تعني أنتم كإدارة أمريكية ، أم نحن فحسب .

ردد مدير المخابرات في عصبية :

- نحن ؟!

أجابه مستر (X) في سرعة :

- نعم .. نحن .. أنا وأنت يا رجل .

انعقد حاجبا مدير المخابرات في شدة ، وهو يتساءل في توتر بالغ :

- أعرض جديد هذا ؟!

أجابه مستر (X) في حزم :

- نعم .. عرض خاص جدًا يا مدير المخابرات ، ومحدود جدًا أيضًا ، فإما أن تقبله الآن فورًا ، أو ترفضه فورًا ، أو ترفضه إلى الأبد .. إنها لحظة الاختيار .. والحسم .

تردد مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يتساءل في حذر :

- وما طبيعة العرض بالضبط ؟!

أجابه مستر (X) :

ـ أن تنتهج النهج نفسه ، الذى انتهجه الرئيس ، ووزير الدفاع ، ومستشارة الأمن القومى .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفاً فى صرامة :

ـ مصلحتك أولاً .

احتقن وجه مدير المخابرات ، وهو يتساءل :

ـ وماذا عن مصلحة (أمريكا) ؟؟

أجابه مستر (X) فى سرعة ، وكأنما كان يتوقع السؤال :

ـ وربما كان فيه مصلحة (أمريكا) أيضاً .

حدق مدير المخابرات فى الشاشة بضع لحظات ، ثم تراجع وهو يهز رأسه فى قوة ، قائلاً فى توتر :

ـ مستحيل ! تلك الحقيرة تمسك كل الخيوط فى أيديها ، وتسيطر على كافة الأمور ، ومهما فعلنا ، فلن يمكننا أن نربح المعركة ، ونحن نجهل كل شىء عنها ، و ...

قاطعه مستر (X) فى حزم :

ـ هنا ستكمن نقطة تفوقنا ، على الإدارة الأمريكية بأكملها .

التقى حاجبا مدير المخابرات ، وهو يتطلع إليه فى تساؤل حذر حذر ، فمال زعيم منظمة الجاسوسية الخاصة بمثل إلى الأمام ، وهو يقول بلهجة حازمة ، حاسمة ، قوية :

ـ فأنا أعرف من هى تلك الزعيمة الغامضة .. أعرف من هى ، ولدى الدليل على هذا أيضاً .

وانتفض جسد مدير المخابرات فى قوة ..

فقد كانت مفاجأة ، كفيلة بقلب الأمور رأساً على عقب ..

كل الأمور .

* * *

٦ ـ مفاجأة في المحيط ..

لم يكن الهجوم، على ذلك المنزل الآمن الاحتياطي، الذي يضم أفراد فريق الخطة (ب) عنيفًا فحسب ..

لقد كان شاملاً ..

كاسحًا ..

وساحقًا ..

في لحظة واحدة، ومع انفجار باب المنزل، تحطمت كل النوافذ دفعة واحدة، بعدد من قنابل الدخان، التي انفجرت فور سقوطها، وانبعثت منها سحب كثيفة غزيرة ..

وسعلت (منى) في قوة، مع الدخان الكثيف، وهي تهتف بالآخرين:

ـ المخرج الاحتياطي .. فلننطلق جميعًا نحو المخرج الاحتياطي.

كان في الواقع أمرًا غير قابل للتنفيذ، مع انعدام الرؤية، وتضاريس المنزل غير المألوفة، و ...

وذلك الهجوم الساحق ..

فقنابل الدخان أعقبها فيض من جنود القوات الخاصة، المدججين بالسلاح، والمحتمين بدروع سميكة، مضادة للرصاص ..

أكثر من مائة جندي، يرتدون أقنعة مقاومة للغازات، قادرة على الرؤية وسط الدخان الكثيف، واندفعوا نحو أفراد الفريق بشراسة مخيفة .. وبمنتهى العنف، تلقى (قدري) ضربة على مؤخرة عنقه ..

وأصيب (شريف) بأخرى، في مقدمة رأسه ..

وحاولت (ريهام) المقاومة، إلا أن عصا كهربية صدمت كتفها، وأطلقت في جسدها كله صاعقة عنيفة، أسقطتها فاقدة الوعي ..

وبكل العنف والشراسة، قاومت (منى) ..

قاومت، وأطلقت عدة رصاصات هنا وهناك ..

ولكن خزانة مسدسها لم تلبث أن نفدت ..

فانطلقت قبضتها ..

وانطلق الجنود نحوها ..

ولم يستغرق الأمر ثوان معدودة ، مع هذا الفارق العددى الرهيب ، حتى سقطت (منى) بدورها ..

وانتهى القتال ..

وفى حزم صارم ، انتزع قائد مجموعة الهجوم جهاز الاتصال المحدود من حزامه ، وقال عبره :

ـ انتهت العملية .. نريد فريق تنظيف .

أتاه صوت يسأله فى اهتمام :

ـ كم بلغت نسبة الخسائر ؟!

أجابه القائد فى حسم :

ـ صفر فى المائة .. الدروع الواقية تلقت الرصاصات كلها ، والفارق العددى كان كاسحاً ، كما أن المفاجأة لعبت دورها كالمعتاد .

قال صاحب الصوت فى ارتياح :

ـ عظيم .

ثم اكتسب صوته لهجة حازمة آمرة ، وهو يضيف :

ـ سيصلك فريق التنظيف خلال دقيقة واحدة .

قال القائد فى صرامة :

ـ هذا أفضل ، فالعملية غير رسمية ، وغير مسجلة ، وأخشى أن تصنع منها الصحافة وأجهزة الإعلام قضية ضخمة .

أجابه صاحب الصوت ، فى صرامة أكثر :

ـ لا تشغل نفسك بمثل هذه الأمور .. اتركها لنا .

قال القائد :

ـ فليكن .

وأنهى الاتصال ، وجلس فى انتظار فريق التنظيف ، الذى سيعيد الأمور إلى ما كانت عليه .

وخلال دقيقة واحدة ، تم خلالها نقل أفراد الفريق المصرى إلى عربة مصفحة ، وانطلقت بهم بعيداً ، ووصل فريق التنظيف ..

وبدأ عمله على الفور ..

وفى وجود حزام أمنى ، يمنع الجيران والفضوليين من بلوغ المكان ، بدأ فريق التنظيف عمله ..

واستغرق الأمر ساعة واحدة ..

ساعة ، عاد المنزل بعدها إلى ما كان عليه ، قبل الهجوم ..

وعندما انصرف فريق التنظيف ، كان من المستحيل أن تثبت أية جهة ، مهما بلغت كفاءتها أو مهارتها ، ومهما بلغت خبرة رجالها ، أن ذلك المنزل ، في ضواحي (واشنطن) قد تعرض لهجوم ..

أي هجوم ..

على الإطلاق ..

* * *

بدت مستشارة الأمن القومي شديدة العصبية والتوتر ، على متن ناقلة البترول الأمريكية العملاقة ، التي تشق المحيط الأطلنطي ، حاملة في قاعها شحنة هائلة من ذهب (فورت نوكس) ، تبلغ قيمتها مائة مليار دولار ..

وبكل عصبيتها وتوترها ، سألت قبطان ناقلة البترول :

- متى نلتقي بالمدمرة (أيزنهاور) ؟!

ألقى القبطان نظرة على ساعته ، وأجابها في برود :

- خلال اثنتي عشرة دقيقة فحسب يا سيدتي .

وصمتت لحظة ، ثم تساءل ، في ضيق واضح :

- ولكنني أجهل في الواقع ، لماذا ينبغي علينا أن نلتقي بمدمرة حربية ، من الأسطول الأمريكي ، في قلب المحيط ، في حين أنك أخبرتنا منذ البداية ، أن رحلتنا هذه سرية تمامًا ؟!

أجابته في خشونة قلقة :

- ليس هذا من شأنك .

انعقد حاجبا الرجل في غضب ، أدركت هي بسرعة أنه كفيل بإفساد العملية كلها ، فاستدركت في سرعة ، محاولة تلطيف أسلوبها :

- إنها أمور تتعلق بالأمن القومي .

غمغم القبطان ، دون أن يفارقه غضبه .

- بالتأكيد يا سيدتي .. بالتأكيد .

ألقت عليه نظرة مقت كعادتها ، ثم غادرت غرفته ، وهي تلتقط هاتفها المحمول ، متمتمة في سخط :

- ويقولون : إنني أقرب من المواجهة .

لم تكد تغادر القمرة، لتجرى اتصالها الخاص، حتى قال القبطان فى كراهية واضحة، لم يحاول إخفاءها:

- يا لها من شخصية بغيضة!

تطلّع إليه ضباطه فى صمت، دون أن يجرؤ أحدهم على نطق كلمة واحدة، فهزّ هو رأسه، وتابع فى سخرية غاضبة:

- أمن قومى! يا لها من حجة مكرّرة وسخيفة!

أما مستشارة الأمن القومى، فقد ضربت أزرار هاتفها الخاص فى سرعة، قبل أن ترفعه إلى أذنها، مغمغمة:

- تُرى كيف تسير الأمور هناك ؟!

مضت لحظات من الصمت، قبل أن تسمع وزير الدفاع، وهو يقول فى توتر:

- هل .. هل قمت بمهمتك ؟!

أجابته فى شىء من الغضب:

- ليس بعد يا رجل .. الأمر ليس بالسهولة التى تتصورونها .. طاقم ناقلة البترول متذمر للغاية، ولا بد أن نلتقى بالمدمرة (أيزنهاور) أولاً، لتلتقط جثة ضابط المخابرات المصرى، قبل أن نلتقى بتلك الحقيرة، فى البقعة التى حددتها، فى قلب المحيط.

غمغم فى عصبية:

- فليكن .. فليكن.

سألته فى اهتمام متوتر:

- وماذا عنكم ؟! ماذا تفعلون هناك ؟!

أطلق زفرة ملتهبة، قبل أن يجيب:

- الكونجرس مشتعل للغاية .. النواب جميعهم غاضبون، سواء الجمهوريين أو الديموقراطيين .. الكل يطالب بإجراء تحقيق على أعلى مستوى، بشأن الاستيلاء على ذهب (فورت نوكس)، ويبدو أن رئيس شعبة الأمن الداخلى، سيصبح كبش الفداء للموقف كله.

قالت فى صرامة:

- فليذهب إلى الجحيم .. المهم أن يمضى الأمر بسلام.

قال الوزير بمنتهى التوتر:

- ليس بهذه البساطة .. الكونجرس يطالب بلجنة تحقيق مستقلة تمامًا، ترأسها لجنة من النواب، على أعلى مستوى، ولو حدث هذا، فستكون التحقيقات دقيقة للغاية.

قالت في حدة :

ـ ومالنا في هذا ؟! مستر (X) هو الذي قام بالعملية كلها ، ولو انكشفت الأمور ، ستتصل أصابع الاتهام كلها إليه ، وليس إلينا .

قال في عصبية :

ـ أنسيت أنه يملك عقدًا للتبادل المعلوماتي ، مع الإدارة الأمريكية الحالية ، يحمل توقيع الرئيس شخصيًا .

امتزج شيء من الخوف بصرامتها ، وهي تقول :

ـ ومالنا في هذا يا رجل ؟! هل تعتقد أنه سيبرز ذلك العقد يومًا ؛ ليعطيه للصحافة والإعلام ، مخاطرًا بخسارة نهر متدفق من المعلومات ؟!

قال بعصبية أكثر :

ـ ربما يبرزه للدفاع عن نفسه .

قالت في سرعة وصرامة :

ـ عند ماذا ؟! إنه مجرد زعيم غامض مجهول ، لمنظمة جاسوسية غير معلنة .. من سيوجه إليه اتهامًا صريحًا ، يدفعه لمحاولة الدفاع عن نفسه ؟!

صمت الوزير بضع لحظات ، ثم قال في توتر بالغ :

ـ فليكن .. ليس بيدنا سوى ما نفعله .

قالت بكل الصرامة :

ـ بالضبط .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت بنفس الصرامة :

ـ أبلغني ما ستسفر عنه الأمور فورًا .

غمغم مرة أخرى :

ـ فليكن .. فليكن .

أنهى الاتصال من جانبه ، فمطّت هي شفتيها الغليظتين في مقت وازدراء ، مغمغمة :

ـ من يسمع ارتجافته الآن ، لا يتصوّر أنه الشخص نفسه ، الذي كان يتحدّث كالأسد ، وهو يعلن الحرب على (العراق) .

أعادت الهاتف إلى جيبها ، واستدارت عائدة إلى قمرة قبطان ناقلة البترول العملاقة ، ولم تكد تلتفت إليها ، حتى استقبلها القبطان ، قائلاً في برود :

ـ المدمرة (أيزنهاور) ستظهر خلال دقيقة واحدة .

هتفت في لهفة :

ـ حقًا ؟!

لم تمض تلك الدقيقة، حتى ظهرت المدمرة (أيزنهاور) بالفعل، وهي تتجه نحوهم، واستقبل جهاز الاتصال في ناقلة البترول صوت قبطانها، وهو يقول في حزم:

- دقيقة واحدة وتبدأ عملية تسليم الشحنة المحدودة.

أجابه قبطان ناقلة البترول، عبر جهاز الاتصال:

- نحن مستعدون للاستلام.

شعرت مستشارة الأمن القومي بقلبها يخفق في قوة، وهي تراقب المدمرة (أيزنهاور)، التي راحت تقترب..

وتقترب..

وتقترب..

ثم توقفت هناك على مسافة مائة متر من ناقلة البترول، وهبط منها زورق مطاطي بمحرك آلي، يحمل خمسة رجال، يرتدون جميعهم زي رجال البحرية الأمريكية، واتجه نحو ناقلة البترول، في نفس الوقت الذي انبعث فيه صوت قبطان (أيزنهاور) عبر جهاز الاتصال في الناقلة، قائلاً:

- الشحنة في الطريق إليكم.

تعقد حاجبا مستشارة الأمن القومي في شدة، والتفتت

منظارًا مقرّبًا، راحت تفحص به الزورق المطاطي، الذي يقترب في سرعة، قبل أن تغمغم في عصبية:

- أين تلك الجثة ؟!

انتفض جسد قبطان الناقلة، وهو يهتف مستنكرًا:

- الجثة ؟! أية جثة ؟!

أدارت عينيها إليه بحركة حادة، قائلة في شراسة:

- ليس هذا من شأنك.

ولكن الرجل صاح في وجهها بغضب:

- بل هو من شأني يا سيدتي، وإن كانت أهميتك في الإدارة الأمريكية، فأنا قبطان هذه الناقلة، وحاكمها الأوحد بحكم القانون، ولابد لي من معرفة كل ما يحدث هنا، ونقل جثث الموتى ليس من اختصاصاتنا، حتى لو تعلق هذا بالأمن القومي كما تدعين..

أدركت مستشارة الأمن القومي أن الأمور تكاد تفلت من بين أصابعها، فقالت في توتر، محاولة تهدئة الموقف:

- تلك الجثة لن تبقى هنا طويلاً.. سيتم تسليمها مع الشحنة في قاع الناقلة.

قال في غضب :

- حتى الشحنة التي نحملها ، نجهل كل شيء عنها .. مجرد صناديق هائلة من الصلب ، ثقيلة الوزن إلى حد رهيب .

قالت في حدة ، وقد عجزت عن السيطرة على أعصابها :

- ليس من شأنك أن تعرف .

صاح بكل غضبه وثورته :

- بل هو من شأني يا سيدتي ، و ..

قبل أن يواصل صياحه ، ارتفع فجأة صوت أحد بحارته من سطح الناقلة ، وهو يهتف :

- لقد وصل الزورق .

أدارت مستشارة الأمن القومي عينيها في سرعة ، إلى حيث ارتفع صوت البحار ، ورأت بحارًا آخر يلقي حبلاً إلى الزورق المطاطي ، ثم خفق قلبها في قوة ، عندما رأت شخصًا يتسلق الحبل ، إلى سطح المدمرة ، الذي وثب إليه في خفة ورشاقة ، قبل أن يتجه مباشرة إلى قمرة القبطان ، وهو يرفع عن رأسه قبعة البحرية الأمريكية المميزة ، و ...

واتسعت عينا مستشارة الأمن القومي عن آخرهما ..

وانتفض جسدها كله في عنف ..

وتراجعت كالمصعوقة ..

فما رأته أمامها ، في تلك اللحظة ، كان مذهلاً ..

وإلى أقصى حد ...

* * *

« عجبًا ! »

غمغمت الزعيمة الغامضة بالكلمة ، في شرود عجيب ، وهي تراجع إحدى صور الأقمار الصناعية ، التي نقلت مشهد الزورق الآلي المطاطي ، وهو ينتقل ، من المدمرة (أيزنهاور) ، إلى ناقلة البترول ، فسألتها الصينية الحسناء (تيا) في حذر :

- هل حاولوا خداعنا أيتها الزعيمة ؟!

رفعت الزعيمة عينيها إليها ، وتطلعت إلى وجهها بضع لحظات في صمت ، قبل أن تتكلم ، قائلة :

- هل تخمنين لماذا عفوت عنك يا (تيا) ؟!

رفعت (تيا) رأسها ، في شيء من الاعتداد ، قائلة :

ـ لماذا أيتها الزعيمة ؟!

أجابتها الزعيمة في صرامة :

ـ لأنك قوية ، صلبة ، مثابرة ، عنيدة ، قادرة على القتال حتى آخر لحظة ، دون هوادة أو تراجع .

ثم نهضت من مقعدها ، مستطردة :

ـ ولأنك امرأة .

ظلت (تيا) ثابتة في مكانها ، في حين دارت الزعيمة حولها ، متابعة :

ـ باختصار أنت صورة مني .. صورة يمكنها أن تتولى الأمور بكفاءة أفضل من أي رجل هنا .

وعادت إلى مقعدها ، وأشعلت سيجارة طويلة حمراء ، ثم لوحت بيدها ، الممسكة بصورة الأقمار الصناعية ، مواصلة :

ـ في رأيي ينبغي أن تحكم النساء العالم اليوم .. لقد حصل الرجال على فرصتهم في حكم العالم طويلاً ، وكانت النتيجة بشعة للغاية .. جوع ، وعذاب ، ودمار ، وخراب ، ونيران ، ودماء ، في كل أنحاء الأرض .. الآن حان دورنا .. لابد أن تبدأ المرأة مرحلة حكمها ، لتثبت أنها الأفضل .. دائماً .

غمغمت (تيا) :

ـ إنها كذلك أيتها الزعيمة .

ابتسمت الزعيمة ، وهي تنفث دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ بالضبط .

ثم ألقت الصورة إلى (تيا) ، التي التقطتها في خفة ومهارة ، والزعيمة تقول :

ـ ما العجيب في هذه الصورة ؟!

تطلعت (تيا) إلى الصورة في اهتمام شديد ، قبل أن تقول في حذر :

ـ إنها صورة عادية ، لخمسة من بحارة الأسطول الأمريكي ، داخل زورق مطاطي آلي ..

أشارت الزعيمة بسبابتها ، قائلة :

ـ بالضبط .. مجرد صورة عادية ، لزورق من المفترض أنه ينقل جثة (أدهم) ، من المدمرة (أيزنهاور) ، إلى ناقلة البترول ، التي تحمل شحنة الذهب .

ارتفع حاجبا (تيا) ، وهي تقول :

ـ جثته ؟! هذا الزورق لا يحمل أية جثث !!

كرَّرت الزعيمة في حزم :

ـ بالضبط .

ونهضت من مقعدها مرة أخرى ، وهي تواصل ، وكأنها تتحدث مع نفسها :

ـ ولو أضفنا هذا إلى السؤال السابق ، وهو لماذا لم تتمزق جثة (أدهم صبري) ، كما تمزقت جثث باقي الرجال ، مع انفجار حجرة معادلة الضغط ، سنجد أنفسنا أمام جواب واحد لا غير .

تطلَّعت إليها (تيا) بعينين متسائلتين ، تملؤهما اللهفة ، دون أن تنطق حرفًا واحدًا ، فتابعت الزعيمة في حزم :

ـ إن (أدهم صبري) لم يلق مصرعه بعد .

ارتفع حاجبا (تيا) ، في دهشة حقيقية ، وهي تهتف :

ـ مستحيل ! الرجال يقولون : إن الحجرة ظلت مغمورة بمياه المحيط ، لأكثر من عشر دقائق كاملة ، وما من رئة بشرية يمكنها احتمال انعدام الهواء لكل هذا الوقت ، في هذا العمق .

ابتسمت الزعيمة ، وهي تقول :

ـ هذا ليس المستحيل الوحيد في الواقع ، فأي مخلوق بشري لا يمكنه أن يصعد من هذا العمق إلى السطح أيضًا ، دون زي غوص خاص ، كالذي كان يرتديه رجالنا ، ولا أحد يمكنه أن ينجو من الانفجار ، الذي مزَّق الرجال تمزيقًا ، وهذا يعني أنه لو كان (أدهم صبري) على قيد الحياة الآن ، كما أتوقَّع ، فهو قد تجاوز ثلاثة مستحيلات ، وليس مستحيلاً واحدًا .

غمغمت (تيا) في حذر :

ـ هذا صحيح .

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها ، قبل أن تقول :

ـ دعيني أذكِّرك أننا لا نتحدث عن شخص عادي ، وإنما عن (أدهم صبري) ، أقوى وأخطر رجل مخابرات عرفه التاريخ .

غمغمت (تيا) :

ـ ولكنه مجرَّد بشري ، في كل الأحوال .

قالت الزعيمة في حزم :

ـ هل قرأت ملفه جيدًا ؟!

أجابتها (تيا) في سرعة وحزم :

- كل حرف منه .

أشارت الزعيمة بيدها ، قائلة :

- عظيم .. أنت تدركين مثلي إذن أنه مجرد بشري ، من الناحية التشريحية فحسب ، ولكنه في الواقع يمتلك عددًا مدهشًا من المهارات والخبرات ، مع سعة حيلة ، وقدرة على الابتكار ، تجعله يفوق أي شخص عادي ، وبالذات في مواجهة المخاطر ، التي يجيد التعامل معها أكثر ، كلما تشابكت ، وتعقَّدت ، وبلغت حد الاستحالة .

قلبت (تيا) كفيها ، وهي تتساءل :

- ولكن كيف يمكن أن ينجو من كل هذا ؟!

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها الحمراء مرة أخرى ، وهي تقول :

- لقد طرحت السؤال نفسه على ذهني أكثر من مرة ، طوال فترة انقطاع الاتصالات المتطوّرة ، ولكن ما أن عادت الشبكة إلى العمل ، وأمكنني استخدام كاميرات الرصد المضادة للماء ، في حجرة معادلة الضغط ، حتى أمكنني استيعاب الموقف كله .

استمعت إليها (تيا) في اهتمام ، وهي تتابع :

- الحجرة كانت تحوي زورقًا مطاطيًا صغيرًا ، مزودًا بمحرك آلي ، وأسطوانة هواء مضغوط ، لملئه بسرعة ، في ظروف الطوارئ .

غمغمت (تيا) ، وعقلها لم يستوعب الأمر بعد :

- هذا صحيح .

واصلت الزعيمة ، في هدوء عجيب :

- ذهني يرسم صورة واضحة لما حدث داخل الحجرة ، فور تدفُّق مياه المحيط إليها .. لقد تحرك (أدهم) بسرعة مدهشة كعادته ، وجذب صمام أسطوانة الهواء المضغوط ، ليمتلئ الزورق المطاطي في لحظات ، وعندما غمرت مياه المحيط الحجرة بأكملها ، ارتفع معها الزورق المطاطي ، ليلتصق بالسقف ، ولكنه كان يمتلئ بالهواء ، الذي بدأ (أدهم) يتنفَّسه في انتظام ، عبر الصمام الجانبي .

ارتفع حاجبا (تيا) مرة أخرى في دهشة ، وهي تقول :

- عجبًا ! هذا يبدو منطقيًا تمامًا ، بالنسبة للبقاء داخل الحجرة المغمورة بمياه المحيط ، ولكن ماذا عن الضغط الشديد ، عند هذا العمق ؟!

قالت الزعيمة في عمق :

ـ لو راجعت معلوماتك الفيزيقية ، لوجدت أن وجوده داخل الحجرة ، يمنع عنه ضغط المياه خارجها .

قالت (تيا) في سرعة :

ـ ولكنه لم يكن يتوقع البقاء داخلها إلى الأبد بالتأكيد !

أطلقت الزعيمة ضحكة ساخرة ، ونفثت دخان سيجارتها في قوة ، قبل أن تقول :

ـ وتدعين أنك قد قرأت ملفه كله ؟! يا للسخافة ! لو أنك تعرفين نصف ما أعرفه عن (أدهم) لأدركت أنه لاعب شطرنج ماهر للغاية .. بل وعبقري أيضاً .

رددت (تيا) في حذر حائر :

ـ شطرنج ؟!

أجابتها الزعيمة في هدوء ، يحمل لمحة من النشوة :

ـ نعم .. لاعب شطرنج عبقري ، يمكنه أن يتوقع تحركات خصمه ، وخطواته التالية ، لعدة نقلات تالية ، ومن هذا المنطلق ، أمكنه أن يتوقع ما سنفعله حتماً ، في ظل غياب شبكة المراقبة والاتصالات .. الطبيعي أن نرسل فرقة

غوص ، للتأكد من مصرعه ، وكل ما عليه عندئذ ، هو أن يصنع كميناً بسيطاً ، يستقبل به تلك الفرقة .

أشارت (تيا) بيدها ، قائلة في اعتراض :

ـ إنهم خمسة رجال مسلحين ، وهو رجل واحد أعزل .

انعقد حاجبا الزعيمة في شدة ، وهي تقول في صرامة مثلجة :

ـ من الواضح أنك تجهلين تماماً من هو (أدهم صبري) .

قالت (تيا) ، محاولة تبرير موقفها :

ـ أعلم أنه شخص غير عادي ، ومقاتل من طراز نادر ، وإلا ما أمكنه التغلب عليّ ، ولكنه كان تحت سطح المحيط ، بدون أجهزة غطس ، في مواجهة خمسة من رجال الضفادع البشرية المحترفين .

لوّحت الزعيمة بيدها في قوة ، قائلة في صرامة شديدة :

ـ هذا لن يصنع فارقاً ، بالنسبة لرجل مثله .

بدت (تيا) شديدة الانفعال ، وراح صدرها يعلو ويهبط ، في انفعال عجيب ، وهي تقول :

ـ إذن فقد باغت رجالنا في الأعماق ، وأعد لهم كميناً ، وهم يتوقعون العثور على جثة هامدة .

استعادت الزعيمة هدوءها ، وهي تقول :

ـ بالضبط .

تلاحقت أنفاس (تيا) أكثر ، وهي تقول :

ـ وهزمهم جميعًا ؟!

لوّحت الزعيمة بيدها ، وهي ترفع حاجبيها وتخفضهما ، دون أن تجيب ، سوى بابتسامة غامضة ، جعلت (تيا) تواصل ، وانفعالها يتزايد أكثر وأكثر :

ـ أراهن أنه قد استولى على إحدى بذلات الغوص الخاصة بالأعماق أيضًا ، و ...

بترت عبارتها بغتة ، ثم تساءلت في توتر :

ـ ولكن ماذا عن الاتصالات ، التي تمت بيننا وبين طاقم الغوص طوال الوقت ؟!

ابتسمت الزعيمة في سخرية ، وهي تقول :

ـ لاحظي أننا كنا نتحدث إليهم ، في حين كانت ردودهم على شكل رسائل قصيرة ، يمكن لأي مخلوق إرسالها ، عبر أجهزة الاتصال المحدودة .

تراجعت (تيا) مضطربة ، وقد استوعبت الأمر :

ـ آه ..

ثم استعادت انفعالها ، وهي تتابع :

ـ ولأنه لاعب شطرنج ماهر ، فقد استنتج أن الإبلاغ عن أن الجثة محشورة في ركن الحجرة ، سيدفع القائد الـ.. القديم إلى طلب استخدام المشاعل تحت المائية ، دون أن ينتبه إلى أنابيب الغاز ، المستخدم في تعديل الضغط ، والتي تمتد على جدران الحجرة .

رفعت الزعيمة حاجبيها في إعجاب ، ثم خفضتهما قائلة :

ـ بالضبط .. بدأت تستوعبين الأمر يا (تيا) .

تساءلت (تيا) في لهفة :

ـ ولكن كيف أحدث الانفجار ، دون أن يصاب خلاله كالآخرين ؟!

ألقت الزعيمة بقايا سيجارتها إلى آخر الحجرة ، وهي تقول :

ـ ليس بالأمر العسير يا (تيا) .. يمكنه أن يشعل أحد تلك المشاعل تحت المائية ، عند طرف أنابيب الغاز ثم يتعلق بالزورق المطاطي ، ويدفعه خارج الحجرة ، وعندئذ ، سيحمله الزورق بسرعة إلى مسافة بعيدة ، بالقدر الكافي لحمايته من الانفجار ، الذي سيحدثه المشعل تحت المائي ، عندما تبلغ حرارته أنابيب الغاز .

ارتفع حاجبا (تيا) وهي تقول في انفعال جارف:

ـ رباه! لو فعل هذا فهو عبقري حتماً.

أشعلت الزعيمة سيجارة أخرى، وهي تقول في نشوة غريبة:

ـ إنه كذلك.

ارتجف جسد (تيا)، من فرط الانفعال، وهي تؤيدها، قائلة:

ـ نعم.. إنه كذلك.

رمقتها الزعيمة بنظرة غامضة، قبل أن تسألها:

ـ هل تعتقدين أنه سيتعلق بالزورق، حتى يصل به إلى السطح؟!

أجابتها (تيا) في سرعة:

ـ كلا بالطبع.

ثم استطردت في حزم:

ـ لابد أن يتخلّى عنه، بعد حدوث الانفجار مباشرة، وأن يكمل طريقه وحده؛ لأن أي غوّاص محترف يعلم جيداً،

أن الصعود إلى السطح بسرعة كبيرة من الأعماق، يؤدّي إلى تكوّن فقاقيع الغاز في الأوردة والأوعية الدموية، مما قد يسبب الوفاة(*).

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها في بطء شديد، وهي تتأملها بنظرة غامضة، قبل أن تقول:

ـ لديك خبرة مطولة في الغوص يا (تيا).

انحنت (تيا) انحناءة خفيفة، وهي تقول في دهاء:

ـ ليس بمثل خبرتك يا سيدتي.

تراجعت الزعيمة في مقعدها، وتطلّعت إليها لحظة، ثم عادت تسألها، في شيء من الصرامة:

ـ والآن ما الذي يمكن أن تعنيه هذه الصورة، في ضوء المعلومات الجديدة؟!

عادت (تيا) تتطلّع إلى صورة القمر الصناعي في إمعان، قبل أن ترفع عينيها إلى الزعيمة، قائلة:

ـ (أدهم صبري) هو أحد ركاب هذا الزورق.

(*) حقيقة علمية.

أشارت الزعيمة بسبابتها ، قائلة فى حزم :

ـ بالضبط .

ثم نهضت من مقعدها ، بحركة حادة ملتجلة ، وهى تتابع :

ـ وهو الآن على متن ناقلة البترول ، التى تحمل شحنة الذهب .

تقارب حاجبا (ثيا) ، وهى تقول :

ـ يمكننا إعادته إلينا إذن .

صمتت الزعيمة بضع لحظات ، وهى تفكّر فى عمق ، قبل أن تقول :

ـ لن يدهشنى لو أنه هو نفسه يخطّط للعودة إلينا مع الشحنة .

ارتفع حاجبا (ثيا) لحظة فى دهشة ، ثم عادا ينخفضان فى سرعة ، وهى تقول :

ـ إننى أشك فى توقعك تمامًا يا سيّدتى .

غرقت الزعيمة فى تفكير عميق ، لبضع لحظات أخرى ، قبل أن تسأل (ثيا) فجأة :

ـ أخبرينى يا (ثيا) .. هل تعلمين أن درجة الحرارة ، اللازمة لإذابة الذهب ، تقل كثيرًا عن تلك الدرجة القادرة على إذابة الحديد أو الفولاذ ؟!

تساءلت (ثيا) فى حذر :

ـ أعلم هذا أيتها الزعيمة ، ولكننى أجهل بم يمكن أن يفيدنا هذا ؟!

أشارت الزعيمة بيدها ، قائلة :

ـ بالكثير يا عزيزتى (ثيا) .. بالكثير .

قالتها ، وأطلقت ضحكة عالية ..

ضحكة بدت لصفونية الحسناء غامضة ..

ومخيفة ..

إلى حد رهيب .

* * *

٧- الهجـوم ..

حمل صوت مساعد مدير المخابرات العامة المصرية كل توتر الدنيا ، وهو يندفع إلى مكتب المدير ، هاتفًا :

- كارثة يا سيادة الوزير .. كارثة .

انعقد حاجبا المدير في شدة ، وهو يقول في صرامة :

- كارثة ؟! ما الذي تقصده بهذه الكلمة يا رجل ؟! ماذا حدث ؟!

أجابه المساعد في انفعال :

- فريقنا الاحتياطي في (واشنطن) تمت مهاجمته بأسلوب احترافي عميق ، من قبل جهة غير معروفة .

ازداد انعقاد حاجبي المدير ، وهو يقول في توتر :

- هجوم احترافي عنيف ، من جهة مجهولة ؟! هل تعني أنه قد تمت تصفيتهم جميعًا ؟!

هزّ المساعد رأسه نفيًا ، وهو يقول في انفعال :

- لست أعتقد هذا يا سيّدي .. شهود العيان يصفون هجومًا رهيبًا ، باستخدام المتفجرات وقنابل الدخان ، ثم بواسطة

مائة رجل على الأقل ، يرتدون جميعهم أزياء قوات مكافحة الإرهاب ، ويؤكدون في الوقت نفسه خروج أربعة من المصابين المدنيين ، إلى سيارة إسعاف كبيرة ، وهذا يوحي بأن فريقنا تم اختطافه ، وليس تصفيته يا سيّدي .

تراجع المدير في مكتبه ، وداعب ذقنه بسبّابته وإبهامه ، وهو يراجع ذلك الموقف في ذهنه ، قبل أن يسأل في اهتمام :

- هل أصدر الأمريكيون تصريحًا رسميًا بما حدث ؟!

مرة أخرى ، هزّ المساعد رأسه نفيًا ، وقال :

- مطلقًا يا سيّدي ، وكل الجهات الأمنية الرسمية أنكرت كل صلة لها بالأمر ، بل واستنكرت حدوثه أيضًا ، وعلى الرغم من أقوال الشهود ، التي تم التقاط منها مرتين ، فرجالنا في (واشنطن) يؤكدون أن منزلنا الآمن الاحتياطي هناك يبدو سليمًا تمامًا ، دون أدنى أثر لأي هجوم ، من أي نوع .

قال المدير في حزم :

- لقد تم استخدام فريق تنظيف ، لإخفاء كل أثر للهجوم ، حتى لا يمكن إثبات حدوثه ، بأي حال من الأحوال .. آه .. إنه أسلوب يميّز عمل جهة بعينها .

مال المساعد ، وهو يقول :

ـ المخابرات المركزية الأمريكية.

عاد حاجبا المدير ينعقدان ، وهو يقول :

ـ ولكن لماذا تلجأ المخابرات المركزية إلى هذا الأسلوب ، فى نفس الوقت الذى يبلغ فيه تعاوننا الحد الأقصى ، منذ سنوات طوال ؟!

التقط المساعد نفساً عميقاً ، وقال :

ـ ربما لأننا لم نبلغهم بأمر فريقنا يا سيدى .

أشار المدير بيده ، قائلاً فى حزم :

ـ فى هذه الحالة كانوا سيعلموننا بالأمر على الأقل حتى ولو أخفوه عن وسائل الإعلام والصحافة ، وكانوا سيبدون غضبهم واعتراضهم الشديد .

وصمت لحظة للتفكير العميق ، قبل أن يهز رأسه ، متابعاً :

ـ كلا .. هناك أمر غير مفهوم .

ثم التقط سماعة هاتف الخط الساخن من جواره(*) ، مستطرداً فى صرامة :

ـ وربما كانت لدى الأمريكيين بعض الأجوبة .

لم تمض ثوان قليلة ، على التقاطه السماعة ، حتى سمع صوت مدير المخابرات الأمريكى ، على الجانب الآخر ، وهو يقول :

ـ هل من أخبار جديدة ، يا نظيرى المصرى ؟

قال مدير المخابرات المصرى فى صرامة :

ـ لدينا أخبار مؤكدة ، عن هجوم عنيف ، وقع على بعض أفراد بعثتنا الدبلوماسية فى (واشنطن) ، بأسلوب يتشابه وأسلوب جهاز مخابراتكم ..

صمت الأمريكى بضع لحظات ، ثم قال فى برود :

ـ أظننا نتحدث عن فريق مخابراتكم ، الذى دخل بلادنا ، باعتباره بعثة دبلوماسية رسمية .

(*) الخط الساخن : مصطلح يطلق على هاتف من نوع خاص ، يحدث الاتصال بين طرفيه فور رفع أحدهما سماعة الهاتف من ناحيته ، دون الحاجة إلى طلب أية أرقام ، وهذا النوع من الهواتف يمكن تأمينه ، بحيث يتوقف عن العمل تماماً ، لو جرت أية محاولة لمراقبته ، أو التنصت عليه .

لم يبال المدير بأية قواعد هذه المرة ، وهو يسأله في صرامة :

ـ أين رجالنا يا رجل ؟

أطلق الأمريكي زفرة عصبية ، وهو يجيب :

ـ لست أدري .

هتف مدير المخابرات في صرامة مستنكرة :

ـ لست تدري ؟ هذا قول لا يليق بمدير مخابرات .

بدا الأمريكي شديد التوتر ، وهو يقول :

ـ ربما يصلح هذا القول ، في الظروف العادية ، ولكنه لا يصلح أبدًا في ظروفنا هذه ، التي تعقدت فيها كل الأمور ، وتشابكت على نحو لم يحدث من قبل قط .. أعترف أن الهجوم على فريقكم قد تم في عاصمتنا ، بأسلوب يشبه تمامًا أساليبنا ، التي لم نعلن عنها قط ، ولم ولن نعترف بها أبدًا ؛ لأن قانون المخابرات عندنا يمنعنا من العمل داخل البلاد ، وربما اشترك فيه بعض رجالنا أيضًا ، ولكنني أجهل كل شيء عنه ، فلم أصدر أية أوامر بشأن الهجوم ، أو تصلني أية معلومات عنه ، قبل أو بعد حدوثه .. بل وأعترف حتى إنني كنت أجهل تمامًا ، من الناحيتين ، الرسمية والفعلية ، وجود أي فريق لكم هنا .

قال مدير المخابرات في صرامة :

ـ ربما أصدق ما قلته ، فيما عدا نقطة واحدة ، وهي أنك كنت تجهل وجود فريق من مخابراتنا في (واشنطن) ، فلقد سألتك في البداية عن بعثتنا الدبلوماسية ، فتحدثت أنت عن فريق مخابراتنا .

أجابه الأمريكي في حزم :

ـ لأنني رجل مخابرات ، منذ أكثر من ثلاثين عامًا يا رجل وليس من العسير أن أفهم ما يعنيه الأمر .. ثم إنه لم يتم إبلاغي بتلك الهجوم رسميًا ، إلا أن بعض عملائنا رصدوا الموقف ، وأبلغونا به ، فقمنا بتحرياتنا حوله ، ومن الطبيعي أن أدرك الحقيقة ، التي لم تخبروني بها ، بل وأن أقدر دوافعكم أيضًا ، فلو أننا في موضعكم لقمنا بالخطوة نفسها .

سأله المدير في اهتمام :

ـ المهم .. هل قادتكم تحرياتكم إلى أية معلومة جديدة ؟!

أجابه الأمريكي في أسف :

ـ ليس بعد .. كل الأجهزة الأمنية هنا أنكرت أية صلة لها بالهجوم ، بل وأنكرت حتى معرفتها به ، ولقد أجرينا

اتصالاتنا بكل المطارات ، والمستشفيات ، وتحرينا حتى عن كل طائرة خاصة ، أقلعت من المطارات الرئيسية ، أو المطارات الخاصة ، أو حتى المطارات السرية ، التي نراقبها خلسة ، وراجعنا تقارير كل الطرق البرية ، والموانئ البحرية ، ولم نحصل على أي شيء .

سأله المدير ، في قلق شديد :

ـ أين ذهبوا برجالنا إذن ؟!

زفر الأمريكي ، قبل أن يقول :

ـ بل السؤال الحقيقي هو من هم ؟! من أولئك الذين شنوا ذلك الهجوم العنيف على رجالكم ؟! ولماذا شنوه بالتحديد ؟!

ولم يجب مدير المخابرات المصرى على الفور ..

فقد كان الأمريكي على حق هذه المرة ..

لا بد أن يجيب السؤالين أولاً ، لمعرفة مصير أفراد الفريق ..

من فعلها ؟!

ولماذا ؟!

* * *

« (أدهم صبرى) .. ليس في خدمتك يا سيدتي .. »

نطق (أدهم) العبارة ، في هدوء ساخر ، وهو يقف أمام مستشارة الأمن القومي الأمريكية ، في زي بحارة الأسطول الأمريكي ، وحدقت هي فيه ذاهلة ، نصف دقيقة أو يزيد ، قبل أن تهتف :

ـ أنت ؟!

أجابها بابتسامة لم ترق لها أبداً :

ـ نعم .. هو أنا .. كان المفترض أن نلتقي في (واشنطن) ، إلا أن القدر شاء لنا أن نلتقي هنا ، في قلب المحيط الأطلنطي .

حدقت فيه بضع لحظات أخرى ، قبل أن تقول ، في لهجة ، بدت أقرب إلى الارتياع والذعر :

ـ ولكن المفترض أنك .. أنك .. أعني أنني هنا من أجل .. من أجل ..

قاطعها (أدهم) في شيء من السخرية :

ـ من أجل جثتي .. نعم .. أعلم هذا .

ثم رفع سبابته أمام وجهه ، مستطرداً في حزم :

ـ ولكن لهذا قصة .

رددت مبهوتة :

ـ قصة ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ نعم قصة تحتاج إلى أن نتحدث وحدنا .. فى سرية تامة .

حدقت فيه مرة أخرى ، وكأنما لا تصدق حقيقة الموقف ، ثم لـم تلبث أن انتفضت ، وكأنها تلقى ذهولها وانبهارها خلف ظهرها ، قائلة :

ـ فليكن .. سنذهب إلى حجرة القبطان ، و ...

قاطعها فى حزم ، وهو يلتقط ذراعها ، ويقودها إلـى سطح السفينة ، قائلاً بلهجة رجل ، اعتاد أن يأمر فيطاع :

ـ كلاً يا سيدتى ، ما رأيته من أجهزة ومعدات متطورة فى أسفل ، يجعلنى أرفض فكرة التحدث فى أماكن مغلقة .. إننى أفضل الحديث على سطح الناقلة ، بعيداً عن الآخرين .

تبعته كالمسحورة ، وهو يقودها فى هدوء ، إلى ركن بعيد من السطح ، بالقرب من الحاجز الخلفى للمدمرة ، وما أن استقر بهما المقام هناك ، حتى سألته فى لهجة تخلو من عصبيتها المعتادة :

ـ ماذا تعنى بما رأيته فى أسفل ؟!

تطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول فى لهجة حازمة :

ـ لقد كنت هناك يا سيدتى .

ثم مال نحوها ، مضيفاً :

ـ فى قلب المحيط .

وانتفض جسدها فى عنف ، مع ذلك الشعور العجيب ، الذى سرى فى جسدها كله ، كرياح دافئة ، انطلقت من أذنيها إلى قلبها مباشرة ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تحدق فيه ، وقلبها يخفق ..

ويخفق ..

ويخفق ..

يا إلهى ! كم يشبهه ..

كم يشبه فارسها العربى ، الذى خلب لبها فى شبابها ..

نفس القامة ..

والوسامة ..

والقوة ..

والشخصية الآسرة ..

حتى أسلوب الحديث ، الذى يجمع بين الحزم والهدوء ..

يا إلهى !

كم يشبهه ..

خفق قلبها مع تلك المشاعر الفياضة ، التى اجتاحت جسدها كله ، والتى بذلت جهداً رهيباً للسيطرة عليها ، وهى تسأله فى صوت خافت ، استنكرته أذناها تماماً :

ـ وماذا يحدث هناك ؟!

اعتدل مجيباً بصوته القوى :

ـ سأخبرك .

بدت كالمأخوذة ، وهى تستمع إليه ، وهو يصف لها غوّاصة الزعيمة ، بكل ما تحويه من أجهزة اتصال وسيطرة متطورة ، ثم وهو يشرح لها كيف فرّ منها ، وصعد إلى السطح ، بوساطة الزورق الطافى الآلى ، قبل أن يقول :

ـ وعندما وصلت إلى السطح ، كانت أقاوم غيبوبة عنيفة ، كانت تسيطر على كيانى كله ، حتى إنهم تصوروا أننى جثة هامدة ، ولكننى استعدت وعيى على سطح المدمرة ، ووجدت

القبطان يقف أمامى ، ويخبرنى أنهم كانوا يبحثون عنى منذ فترة ، وأنه سيبلغ (واشنطن) بخبر العثور علىّ حيّاً ، إلا أننى استوقفته ، وشرحت له الموقف كله ، وما الذى رأيته فى تلك الغوّاصة هناك .. فى أعماق الأطلنطى .

بدا عليها الارتياع ، وهى تقول مستنكرة :

ـ شرحت له الموقف كله ؟!

أومأ برأسه إيجاباً ، وقال فى حزم :

ـ نعم .. كان ينبغى أن أفعل .. إنه قبطان المدمرة ، ومن المحتم أن يكون أهلاً للثقة ، وخاصة بعد أن قضى ما يقرب من ساعتين كاملتين ، فى انتشال جثث ضباط وجنود ، من القوات البحرية الأمريكية ، قضوا نحبهم مع سفنهم ، بسلاح رهيب مجهول ..

لم تنبس ببنت شفة ، وكأنما يمنعها أسلوبه القوى من مجرّد المناقشة ، فتابع هو :

ـ من حسن الحظ أنه كان رجلاً وطنيّاً صادقاً ، ويمتلك عقلاً واعياً متفهّماً ، استوعب بسرعة فكرة مراقبة الاتصالات ، واتفق معى على أن يلتكم بالعثور على جثتى فحسب ، حتى توحى لتلك الفاحشة فى الأعماق ، أننى قد لقيت مصرعى ، فلا تحاول مهاجمة المدمرة لاستعادتى .

قالت ميهورة :

ـ فقط ؟! هل أطلقت مصرعك ، لتمنعها من استعادتك فحسب ؟!

قال في سرعة :

ـ بل وحتى يمكنني مباغتتها أيضًا .

رددت حائرة :

ـ مباغتتها ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول في عزم :

ـ نعم .. فمن المستحيل أن أسمح لها بمواصلة خطتها الجنونية ، وسعيها المريض للسيطرة على العالم .

وعاد يميل نحوها ، مضيفًا بكل الحزم والعزم :

ـ لقد قررت أن أعود إليها هناك .. في الأعماق .

مرة أخرى انتفض جسدها ، مع أنفاسها الحارة ، ولهجته القوية ، وحدقت ميهورة مأخوذة في ملامحه ، وفي عينيه الصارمتين الآمرتين العميقتين ، مرددة في خفوت :

ـ الأعماق ؟!

ثم هزت رأسها في قوة ، لتنتزع نفسها من حالة الانبهار ، التي سيطرت عليها ، ولكنها بذلت جهدًا حقيقيًا ، لتستعيد شيئًا من صرامتها أمامه ، وهي تقول في توتر :

ـ ولكن كيف ؟! كيف يمكنك الوصول إلى غواصة كهذه ، تعجز كل وسائلنا عن رصدها ، في أعماق الأطلنطي .

ابتسم وهو يشير إلى رأسه ، قائلاً :

ـ لقد أرهقني التفكير طويلاً في هذا الأمر في الواقع ، حتى علمت أنكم تطلبون جثتي في إلحاح .. عندئذ فقط أدركت أن هذا مطلبها هي ، وليس مطلبكم ، أو حتى مطلب قيادتي في (القاهرة) ، فما كنتم ستحتفظون بهذه العصبية المتحكمة ، إلا في حالتها وحدها ، فهي ستصر حتمًا على التأكد من مصرعي ، ووسيلتها الوحيدة في هذا ، هي أن تستعيد جثتي المزعومة .

سألته بقلب مرتجف :

ـ وماذا تنوي أن تفعل ؟!

هز كتفيه ، قائلاً في لا مبالاة :

ـ سأمنحها ما تصبو إليه .

وابتسم في سخرية ، مضيفًا :

ـ جثتي .

لم تستوعب تماماً ما ينوى فعله ، إلا أنها وجدت نفسها تغمغم ، دون أن تدرى :

- يا للأسف !

ارتفع حاجباه فى دهشة لقولهـا ، فـانتبهت هى إلى ما نطقته ، وارتبكت وهى تقول فى عصبية :

- إنك تعرّض نفسك لخطر داهم .

هزّ كتفيه مرة أخرى ، وهو يقول :

- من يدرى ؟! ربما تحمل لها عودتى ذلك الخطر الداهم .

حاولت أن تقول شيئاً ..

أى شىء ..

ولكن لسانها انعقد فى حلقها ، فلم تستطع التفوه بحرف واحد ، فى حين أدار (أدهم) عينيه فيما حوله ، وقال :

- ولكنك لم تحضرى شخصياً ، فى ناقلة بترول ضخمة كهذه ، للحصول على جثتى فحسب .

واتجهت عيناه إليها فى حزم ، وهو يضيف :

- إنك تحملين لها شيئاً آخر .. شىء ضخم للغاية ..

أليس كذلك ؟!

ازدردت لعابها فى صعوبة ، وهى تقول :

- ليس هذا من شأنك .

خُيّل إليها أن عينيه تقتحمان عينيهـا ، إلى كيانها كله ، وهو يواصل ، متجاهلاً تعليقها تماماً :

- دعينى أستنتج هذا .. إنه ذهب (فورت نوكس) ، الذى اعتقدتم أن إرهابيين مزعومين قد استولوا عليه .. أليس كذلك ؟! .

اتسعت عيناها فى ارتياع ، وهمّت بقول شىء ما ، و ..

ولكن فجأة ، دوى الانفجار ..

انفجار هائل رهيب ، أطاح بالمدمرة (أيزنهاور) ، وسحقها سحقاً ، بكل ما عليها ومن عليها ، فى لحظة واحدة ..

وبدا من الواضح أن ناقلة البترول هى الهدف التالى ، لمدفع الليزر الفضائى الرهيب ، بكل ما عليها ..

ومن عليها ..

بلا استثناء .

* * *

٨ـ الشيطانة ..

زفر الرئيس الأمريكى، فى عصبية شديدة، وهو يستقر على ذلك المقعد الوثير، خلف مكتبه الضخم، فى البيت الأبيض، ولوّح بيده، قائلاً:

ـ إنها أسخف جلسة (كونجرس) واجهتها، فى حياتى كلها.. النواب كادوا يفتكون بى، من فرط ثورتهم لما حدث فى (فورت نوكس).

قال وزير الدفاع، وهو يلقى جسده المكدود، على أقرب مقعد إليه:

ـ لو أننى فى مكانهم، لما فعلت أقل من هذا.. الاقتصاد الأمريكى لم يعد يحتمل خسارة رهيبة كهذه.

غمغم الرئيس بنفس العصبية:

ـ أعلم هذا.

ثم لوّح بيده، قائلاً فى حدة:

ـ ولكن لجنة التحقيق التى أقرّوها اليوم، كفيلة بتدمير مستقبلنا كله، بل وإيداعنا السجن مدى الحياة أيضاً، لو كشفت تورّطنا فى الأمر.

هزّ الوزير رأسه، وكأنما يحاول طرح الأمر كله عن أعصابه، وهو يقول فى توتر:

ـ مثل هذه اللجان تستغرق دهراً، قبل التوصّل إلى الحقيقة.

وصمت لحظة، ثم أضاف:

ـ وخاصة لو حرصنا على هذا.

انعقد حاجبا الرئيس، وهو يرمقه بنظرة قاسية، قائلاً:

ـ هل تجد فى نفسك الرغبة فى المزاح، فى ظروف كهذه؟!

انتفض الوزير على مقعده، وهو يقول:

ـ المزاح! إننى جاد تماماً يا سيادة الرئيس.. إننا نتحكّم فى كل شىء فى (أمريكا)، فى الوقت الحالى، وبعد تلك القوانين الاستثنائية، التى أقرّها (الكونجرس) بنفسه، والتى تمنحنا حق مراقبة كل المواطنين بلا استثناء، وبلا إذن مسبق أيضاً، واعتقال كل المشتبه فيهم، دون إبداء الأسباب، ثم إن لدينا الآن جهاز الأمن الداخلى، الذى يمتلك صلاحيات واسعة لا حدود لها.

تراجع الرئيس فى مقعده، وهو يسأله فى عصبية:

ـ وبم يمكن أن يفيدنا كل هذا؟!

أشار الوزير بيديه ، قائلاً :

ـ يمكننا اعتقال من نشاء ، ووضع العراقيل في كل خطوة من خطوات التحقيق ، ودس أدلة وهمية .. أو حتى تصفية من نخشى أمرهم ، لو اقتضى الأمر .

انعقد حاجبا الرئيس في شدة ، وهو يقول :

ـ هذا سيجعلنا أقرب إلى التنظيمات الإجرامية ، منا إلى إدارة أمريكية محترمة .

مط الوزير شفتيه ، وهو يقول :

ـ هذا لن يختلف كثيرًا عما فعلناه ، عندما أثرنا حرب (العراق) ، أو حتى عندما انتصرنا على (أفغانستان) .

ازداد انعقاد حاجبي الرئيس ، وهو يقول :

ـ ما كان ينبغي أن تذكرني بهذا .

سأله الوزير في عصبية :

ـ وهل نسيته ؟!

أشاح الرئيس بوجهه ، قائلاً :

ـ إنني أحاول على الأقل .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتفع رنين الهاتف المحمول للوزير ، فالتقطه بحركة سريعة ، قائلاً :

ـ من المتحدث ؟!

بدا عليه الانتباه والاهتمام الشديدين ، وهو يستمع إلى محدثه ، حتى إنه هب من مقعده ، وراح يتحرك في المكان بعصبية جعلت الرئيس الأمريكي يلتفت إليه ، ويسأله في توتر :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار إليه الوزير أن يصمت ، وهو يواصل الاستماع إلى محدثه لحظة أخرى ، قبل أن يقول في حزم متوتر :

ـ فليكن .. واصل الاحتفاظ بهم ، حتى أخبرك ما الذي عليك أن تفعله بشأنهم .

أنهى المحادثة ، والتفت إلى الرئيس ، الذي سأله ، مكررًا بتوتر أكثر :

ـ ماذا هناك ؟!

التقط الوزير نفسًا عميقًا ، للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يقول في توتر شديد :

- المصريون أرسلوا فريقاً من مخابراتهم ، لمتابعة الموقف هنا ، دون أن يخبرونا بهذا .. فريق يضم أربعة ، من أقرب المقربين إلى رجلهم (أدهم صبرى) .

احتقن الرئيس على مقعده ، وهو يقول فى اهتمام :

- ربما أرسلوهم للبحث عن (أدهم) ، أو لاستعادة جثته ، التى يطلبونها فى إلحاح .

انعقد حاجبا الوزير ، وهو يقول :

- من المستحيل أن نمنحهم جثته .

تنهّد الرئيس فى عصبية ، وقال :

- هذا أمر طبيعى ، فتلك الزعيمة الغامضة أيضاً تصرّ على الحصول عليها .

ازداد انعقاد حاجبى الوزير ، وهو يقول :

- هى أيضاً لن يمكنها الحصول عليها .

ارتفع حاجبا الرئيس ، مع اتساع عينيه فى دهشة ، فتابع الوزير ، فى مزيج من الصرامة والتوتر :

- لأن (أدهم صبرى) ما زال على قيد الحياة .

انتفض جسد الرئيس فى عنف ، وهو يهتف :

- ما زال على قيد الحياة ؟! ولكن كيف ؟! لقد أبلغونا بالعثور على جثته .

هزّ الوزير رأسه ، قائلاً :

- هذا أمر يطول شرحه يا سيادة الرئيس ، ولكن يكفى أن نعلم أن أحد ضباط المدمرة (أيزنهاور) قد أبلغنا بوجود (أدهم صبرى) على قيد الحياة ، على متن المدمّرة ، و ...

صمت لحظة ، تضاعفت خلالها عصبيته ، قبل أن يقول :

- وكان من الضرورى أن نلجأ إلى إجراء احتياطى .

قال الرئيس فى دهشة :

- احتياطى ؟! لضمان استمرار رجل المخابرات المصرى ، فى العمل لحسابنا حتى النهاية .

تطلّع إليه الرئيس فى دهشة ، وكأنما يعجز عن فهمه ، ثم لم يلبث أن ضم شفتيه ، وهو يسأله فى صرامة ، امتزجت بعصبيته وتوتره :

- وما الإجراء الاحتياطى الذى اتخذته ؟!

صمت الوزير لحظة أخرى ، قبل أن يقول فى حزم :

- لقد ألقيت القبض عليهم ... على ذلك الفريق المصرى .

قال الرئيس في عصبية مستنكرة :

- ألقيت القبض عليهم ؟ بعد كل ما فعله المصريون من أجلنا ؟!

لوّح الوزير بيده في حدة ، وهو يقول :

- المصريون فعلوا ما فعلوه ، من أجل أنفسهم ، وليس من أجلنا .. إنهم يخشون أن سقوطنا سيعني عهداً إرهابياً أكثر بشاعة ، على يد تلك القبضة .. إنهم ..

قاطعه الرئيس بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول في حدة :

- المكان .

ثم حاول عبثاً أن يسيطر على أعصابه ، وهو يستطرد :

- المهم .. ما الذي فعلته بفريق المخابرات المصري .

شد الوزير قامته ، وقال :

- لقد أرسلتهم إلى مكان ، لن يمكنهم الفرار منه أبداً .

وقسا صوته في شدة ، وهو يضيف :

- إلى (جوانتانامو)(*) ..

واتسعت عينا الرئيس الأمريكي لحظة ، قبل أن ينعقد حاجباه بشدة ..

بمنتهى الشدة ..

* * *

انتفض جسد مستشارة الأمن القومي الأمريكية ، في ارتياع عنيف ، عند مرأى المدمرة (أيزنهاور) تسحق أمام عينيها ، وقفزت تتعلق بعنق (آدم) في رعب هائل ، وهي تصرخ :

- رباه ! نحن الهدف التالي .. نحن الهدف التالي .

(*) جوانتانامو باي : قاعدة البحرية الأمريكية ، في جنوب (كوبا) ، استأجرتها (أمريكا) عام ١٩٠٣ م ، بعقد وقعه الطرفان ، وتجدد التوقيع عليه عام ١٩٣٤ م ، حاول الرئيس الكوبي (فيدل كاسترو) استعادة (جوانتانامو) ، ولكن الرئيس الأمريكي (جون كينيدي) أرسل القوات البحرية لحمايتها ، ومنذ ذلك الحين ، توقف الرئيس الكوبي عن صرف شيكات إيجار القاعدة ، واعتبر التواجد الأمريكي فيها غير شرعي ، وبعد حرب (أفغانستان) ، أنشأ الأمريكيون سجناً ومعتقلاً رهيباً في (جوانتانامو) ، يعتقلون فيه عدداً غير معلن من الأسرى والمعتقلين ، دون تحديد أسمائهم وهوياتهم ، ويعاملونهم فيه معاملة شديدة القسوة ، تتعارض مع كل الاتفاقيات الدولية ، وقواعد حقوق الإنسان .

انعقد حاجبا (أدهم) في شدة ، وهو يقول :

- مستحيل ! إنها لن تجازف بخسارة كل هذا الذهب .

صرخت مستشارة الأمن القومي :

- تلك الحقيرة قادرة على فعل أي شيء .. أي شيء .

مع آخر حروف صرختها ، ارتج جسد ناقلة البترول الضخمة في عنف شديد ، لتختل معه توازن الجميع على سطحها ، فصرخت المستشارة مرة أخرى ، ولكن (أدهم) أزاحها عن عنقه ، وهو يقول في حزم :

- يمكنها أن تحاول على الأقل .

قالها ، واندفع نحو قمرة القبطان ، الذي بدا شديد التوتر ، وهتف به :

- أين تشحنون الشحنة ؟!

صاح القبطان :

- لا يمكنني أن أخبرك .. إنها مسألة تتعلق بالأمن القومي .

هتف (أدهم) :

- أمن قومي ؟! فلتكن يا رجل .. ليس لديكم سوى مكان واحد ، لوضع شحنة كهذه .

قالها ، واندفع نحو الكوة الكبيرة ، التي تقود إلى خزانات البترول الهائلة في قاع الناقلة ، ووثب عبرها في رشاقة ، وهو يغمغم :

- لماذا تعبثين بقاع الناقلة يا زعيمة الحمقى ؟! أراهن أنك ستحصلين على شحنة الذهب ، بأسلوب جديد ومبتكر للغاية .

كانت الناقلة قد عادت تستقر على سطح المحيط ، وهو يواصل الهبوط إلى الخزانات الضخمة ، متابعاً :

- دعيني أفكرَ جيداً .. إن نقل شحنة كهذه إلى غواصتك ، يحتاج إلى جهد هائل ، ووقت طويل للغاية ، وليس من مصلحتك تحديد موقعك لفترة كهذه .. لديك إذن وسيلة أكثر سرعة ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، عندما وصل إلى القاع ، الذي يضم خزانات البترول الهائلة الخالية ، التي لم تعد تحوي سوى صندوقين معدنيين هائلي الحجم ، يحويان ذهب (فورت نوكس) ..

وحول الصندوقين ، كان هناك جيش صغير ، من رجال الزعيمة ، مع فريق من الرجال ، الذين يرتدون ثياباً لامعة ، مقاومة للنيران ، ودرجات الحرارة العالية ..

وكانت هناك أنابيب من الألياف الزجاجية القوية ، تمتد عبر فتحة كبيرة فى القاع تم فتحها بوساطة قاطع ليزرى قوى وسريع ..

فتحة تتصل مباشرة بغواصة الزعيمة ، حتى لا تتدفق مياه المحيط إلى حيث الشحنة .

وكان هناك بعض الرجال ، الذين يرتدون الثياب المقاومة للنيران يستخدمون القاطع الليزرى نفسه ، لصنع عدد من الفجوات ، فى قاع الصندوقين المعدنيين الهائلين ..

واستوعب عقل (أدهم) الصورة كلها ، فى ثانية واحدة ..

بل واستوعب أيضًا ما يفعله جيش المقاتلين والفنيين ، الذى انتقل حتمًا ، من الغواصة إلى قاع الناقلة ، عبر تلك الفتحة نفسها ..

لقد كان على حق ..

إنهم لن ينقلوا الشحنة ، من الناقلة إلى الغواصة ، بأى وسيلة تقليدية مألوفة .

بل بوسيلة مبتكرة وجديدة تمامًا ..

سيستخدمون القاطع الليزرى ، بما يولده من حرارة هائلة ،

لإذابة شحنة الذهب ، داخل الصندوقين المعدنيين الهائلين ، ودفع الذهب السائل ، عبر أنابيب الألياف الزجاجية القوية(*) ، إلى مكان تم تخصيصه مسبقًا ، فى قلب الغواصة ، حيث يُعاد تجميده ، واستخدامه ..

أسلوب عبقرى ..

وشيطانى ..

كصاحبته ..

كل هذا استوعبه عقل (أدهم) ، فى ثانية واحدة ..

وقبل حتى أن تبدأ الثانية التالية ، صرخ أحد رجال جيش الزعيمة :

— هجوم ..

وفى لحظة واحدة ، ارتفعت فوهات المدافع الآلية كلها نحو (أدهم) ..

وانهالت الرصاصات كالمطر ..

(*) الألياف الزجاجية يمكنها أن تتحمل درجات حرارة مرتفعة للغاية ، لذا تصنع منها أدوات الطهى الشفافة غالية الثمن ، والتى يمكن وضعها فى الأفران ، دون أن تصاب بأى أذى .

لم يكن جسده قد شفي بعد من إصابته السابقة، داخل غواصة الزعيمة، وعلى الرغم من هذا فقد وثب من مكانه أعلى الخزانات، متفاديًا عشرات الرصاصات، ليهبط فوق أحد الصندوقين الهائلين مباشرة ..

ومن موقعه هنا، كان من العسير عليهم إصابته برصاصاتهم، لذا فقد صاح بهم قائدهم الجديد في صرامة آمرة:

- اصعدوا إليه .. لا تسمحوا لأي مخلوق بإفساد المهمة ثم التفت إلى طاقم الفنيين، في ثيابهم اللامعة، المقاومة للنيران، وأضاف في شراسة، أكسبته لمنصبه الجديد:

- لا تتوقفوا .. واصلوا عملكم .. الزعيمة قالت إن كل دقيقة لها ثمنها .

واصل الفنيون عملهم في توتر، في نفس الوقت الذي راح المسلحون يتسلقون فيه الصناديق المعدنية الهائلة، من كل جوانبها، للانقضاض على (أدهم) ..

وفي تلك اللحظة فقط، انتبه (أدهم) إلى حقيقة رهيبة ..

إنه لا يحمل سلاحًا ..

أي سلاح ..

وعدد الرجال، الذين يتسلقون الصندوقين لمهاجمته على سطحهما، يكاد يقارب الخمسين ..

خمسون رجلاً مسلحًا، في مواجهته وحده ..

ووفقًا لأية حسابات منطقية، وحتى مع خبرته ومهاراته، قد يتمكن من تجاوز عشرين مقاتلاً منهم ..

ولكن الآخرين سيمطرونه برصاصاتهم حتمًا ..

ودون أن تكون هناك فرصة واحدة لعدم إصابة الهدف ..

أي هدف ..

وبسرعة مذهلة، انطلق عقله يعمل ..

ويعمل ..

ويعمل ..

ثم فجأة، قفزت إلى ذهنه صورة واحدة كبيرة ..

صورة تلك الفتحة، في أرضية الخزانات، والتي تربط الناقلة بغواصة الزعيمة مباشرة ..

وفي نفس اللحظة، التي برز فيها أول رجال الزعيمة، عند قمة الصندوق المعدني الهائل، الذي يقف عليه، كان (أدهم) قد أقر خطة مجنونة ..

ووضعها موضع التنفيذ ..

وبحركة رشيقة إلى حد مذهل ، وعلى الرغم من إصابته السابقة ، التي تورّمت ضمادتها بالدم ، اندفع نحو الرجل ، ووثب منقضّاً عليه كالفهد ، ليسقط كلاهما من أعلى الصندوق ..

وبدلاً من السقوط أرضاً ، دار جسد (أدهم) مع الرجل المسلّح ، دورة مذهلة للغاية ، ثم هبطا معاً ، عبر تلك الفتحة في القاع ..

واختفيا عن الأنظار تماماً ، والرجل يطلق صرخة قويـة ، غابت داخل الغوّاصة ، حتى تلاشت تماماً ..

ووثب المقاتلون من المشدوهين المعتبين الهـاتفين ، واندفعوا نحو الفتحة ، ولكن قائدهم صرخ بهم في صرامة :

ـ توقّفوا ..

تسمّر الجميع في أماكنهم ، فالتفت هو إلى الفنيين ، وسألهم بشراسته الوحشية :

ـ هل يمكنكم الضخ الآن ؟!

أومأ أحدهم برأسه ، فقال القائد في شراسة :

ـ ابدأ الضخ إذن .

وضغط أحد الرجال زر القاطع الكهربي ، وهو يدفعه داخل فتحة صغيرة في الصندوق ..

ولم تمض لحظات ، حتى بدأ الذهب المصهور يتدفق عبر أنابيب الأنابيب الزجاجية ، إلى تلك الفتحة ، التي تربط الناقلة بالغوّاصة ..

وبرقت عينا القائد الشرس ، وهو يقول :

ـ مصير لم يحلم به ذلك المصري أبداً .. سينتهي أمره داخل قالب من الذهب الخالص ..

قالها ، وأخذ يضحك في نحو هستيري ، وأبخرة الذهب المصهور تتصاعد من الفتحة في كثافة ..

الفتحة التي تحوّل جنبها السفلي داخل غوّاصة الزعيمة إلى جحيم ..

جحيم حقيقي ..

من الذهب الخالص .

انتهى الجزء الرابع بحمد الله

ويليه الجزء الخامس والأخير

(النهاية)